حارة العطار

رواية

مصطفى الرفاعي

دار الكنزي للنشر والتوزيع

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

إشراف عام
صبرينة غلمي

الطبعة الأولى
الكتاب : حارة العطار
تأليف : مصطفى الرفاعي
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : إسلام مجاهد
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٦٦٣٥ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6599 - 80 - 2

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

1

مشي في خطوات وئيدة منتعلًا حذاءً ضاعت ملامحه تحت كسوة من غبار الطريق، كان يسب العالم كله في تلك اللحظة، التي يجبرونه فيها على المجيء شهريًا إلى تلك الحارة العطنة، ليحصّل الإيجار الشهري من السكان، مشي يهز منشته يبعد بها الذباب اللحوح وهو يتقدم من البيت ذي الطابقين، والذي تقف أمامه شجرة الفيكس كأنها ترشده للمدخل، يعرف أن الشجرة من عمر البيت نفسه، وأنها تحفظ الكثير من التواريخ والأحداث، البيوت مرصوصة بجوار بعضها كأنها تتسند، ورائحة عطنة تلف المكان كله في حارة العطار بمصر القديمة، القلل تبدو مرصوصة على الشبابيك كأنها جزء من المكان، والشبابيك الأرابيسك تمنح الحارة منظرًا جماليًا، يمر شهريًا ليحصّل الإيجار ولا أحد يدفع إلا محمد أفندي، دلف إلى مدخل العمارة، ردهة طويلة سقط طلاء جدرانها من الجانبين، وأصبحت لها رائحة عطنة مصدرها ذلك الخروف الملقى في منتصفها، وبجواره بعض فتات الخبز وآنية بها بعض ماء، في نهاية الطرقة عجوز تكوّرت حول نفسها، مغطاة بملابسها السوداء، لا يعرف سلامة أفندي لماذا صنع مصمم العمارة هاتين الدرجتين الهابطتين ثم تمشي مترًا أو يزيد قليلاً ثم تصعد درجتين بعد ذلك؟!، أي فائدة من ذلك سوى تعثره والكثيرين ممن لم يعتادوا دخول البيت يوميًا، على كلٍ ربما هي باقية من أسرار فن المعمار القديم، كذلك هذا السلم الذي يتفلطح أوله، ثم يأخذ في الانبعاج بقوة وأنت صاعد، وكأن الرائحة العطنة تسلمك من مكان إلى مكان، مع أن الهواء يضرب دائمًا في

السلم، لكنه يأتي حاملًا لها، صعد سلامة أفندي عبدالحكيم - محصل الإيجار - البيت الذي يحتوي على عدة غرف في الدور العلوي، كانت المساحة كلها مبسوطة بسقيفة تطل عليها الغرف الأربع، وفي آخر السقيفة يوجد حمام مشترك يستخدمه السكان، الحجرة الأولى يسكنها عزت وجمالات وأبناؤهما، الحجرة الثانية يسكنها محمد أفندي الموظف بالنظارة، وبجواره حجرة رمضان صبي القهوة، ثم حجرة المرأة العجوز النائمة في الطرقة الحاجة سعدية، أما الدور الأول فهو يتكون من الردهة والقهوة ومخزن، هناك الكثير من الأمور المعروفة عن سكان البيت، أولها أنهم جميعًا من أماكن مختلفة لا يمتون للمكان، إلا عزت وزوجته، أما العجوز ورمضان ومحمد أفندي فقد أجبرتهم ظروفهم على السكنى في هذا البيت، رمضان، أبوه طرده من البيت لسوء معاملته لأمه وإخوته فعمل بالقهوة، مزاجه عالٍ، يدخن كل أنواع السجائر والمخدرات، ويتهته في الكلام بصفة مستمرة، وكل ما يمتلكه يذهب للكيف والمخدرات، وكان يُشير إلى رأسه ويقول «أنا دماغي عمرانة»، لذلك يعرف سلامة أفندي أنه لن يجد معه قرشًا واحدًا للإيجار، أما عزت فهو الذي تعبت قدماه من اللف والدوران على الحارة وما يجاورها في سبيل لقمة العيش، قضى في البحث عن العمل أكثر مما قضى في العمل نفسه منذ زواجه وجمالات، أما الحاجة سعدية، فدائمًا ما تنظر إلى الخروف في حسرة وتقول «منين يا ابني؟، لما أبيع الخروف هديك إيجارك»، وخروف يأتي وخروف يروح ولا إيجار، كل هذه الأفكار وغيرها دارت بذهن سلامة أفندي، وهو أمام باب الشقة، يعني لا إيجار، ولا يحزنون، على كلٍ، متى دفعوا إيجارًا، حتى ينتظر تغيرهم هذا الشهر؟!

أزاح الباب المتهالك الذي يفضي إلى السقيفة، ودخلها مبعثرًا نظراته في الأبواب الصماء، عرض السقيفة لا يزيد على متر ونصف، أما طولها فهو ما يقرب من ثلاثة أمتار، مطل عليها أربع فتحات، تقريبًا ليس لها

أي حوائط، أما السقف فلا يُرى من السواد وخيوط العنكبوت التي راحت تنتشـــر وبقوة، وهناك لمبة معلقة بالســـقف لا يدري أهي مضاءة أم لا؟ وقد حاوطتها خيوط العنكبوت مثل ذبابة مستكينة لقدرها، نادى سلامة بصوت جهوري:

- عزت.. يا عزت.. يخرب بيت أهلك إن كان لهم بيت.

وأكمل في نفســـه قائلاً «يظهر كده - والله أعلم - إنه نائم، أو بيدور على شغل، نشوف الواد رمضان»، وهنا فُتح باب حجرة عزت، وإذا بجمالات تقف بعينيها العسليتين، كانت مثالًا حقيقيًا للأنثى، بالرغم من زواجها وأولادها، لم يُحدث الزواج أثرًا مغايرًا في لدونة جسمها وجغرافيته، فمن أعلى يسترسل ذلك الشعر الأصفر على تلك الوجنة البيضاء، ويرتمي على كتفين من العـــاج الأبيض، ومن تحتهما صـــدر نافر، على خصر ضامر، ثم عجيـــزة قوية، وفخذين ممتلئين وسمانة قدم مياســـة، كان ســـلامة أفندي قد دخله كل هذا الجمال فبهت قليلًا.

- يا صباح الجمال يا ســـت جمالات، أنا عـــارف الواد عزت وقع عليكي إزاي؟!

ثم سرعان ما قرب بين حاجبيه وأطلق تنهيدة حارة.

- صحي الملطوش زوجك علشـــان النهارده عشرة من الشهر، والإيجار وكل شهر وإنت طيبة.

ردت جمالات بفطرتها:

- والله يا عم سلامة....

- لم يدعها سلامة تكمل وقال:

- لأ.. لأ.. عم إيه؟ دا أنا.....

لم تلقِ جمالات له بالًا، وأكملت:

- دا عزت خرج الصبح يدور على شغل، الإيجار يوصلك عند أول مرتب بإذن الله.

دون أن يجيب، تركها ذاهبًا ناحية حجرة رمضان ونادى:

- أنت يا ســـي رمضان، قوم قامت قيامة أهلك، شخيرك جايب من أول الحارة، لأ.. .أول الحارة دا إيه! دا ســـليم باشا سمع صوت شخيرك بعتني أجيب الإيجار!

وانهال سلامة بيديه طرقًا وضربًا على الباب وهو يلعن:

- قوم يا ابن المجنونة، قوم هاكســـر البـــاب، يلعن أبوك ابن كلب، لأ مش أبوك لوحده دا وأمك كمان، وســـليم باشا، وعزت ملعون أبوه ابن كلب .

كان حانقًا والغيظ ينفخ وجنته فيطلق الســـباب تلو السباب بقوة، يخبط بكف يده ويعيد الشتائم، وبالرغم من معرفتهم بلسانه، لكن أحدًا لم يبـــدِ اعتراضه أو غيظـــه، هم ألفوه بهذا الشـــكل، ألفوا صوته المزعج وقبضة يده المقلقة لهم مع دخول أول كل شهر، حتى إنهم باتوا مهيئين لاستقبال الطرقات والشتائم بهذا الشكل.

نظر ســـلامة أفندي خلفه فوجد ظهر جمـــالات متجهة إلى الحمام، مص شـــفتيه والحسرة تأكله قائلاً:

- إزاي ابن الكلب اتجوز لهطة القشطة دي، يخرب بيت أهله، اسفوخس على دا حظ! ، صمت، ومـــا زالت عيناه معلقتين على ظهر جمالات، نسي ولم يتذكر شيئًا، لكنه استيقظ فجأة على صوت متقطع:

- أ... أ... أهلًا وسهلًا، ع... عم سلامة، إنت فين يا راجل، ت... ت... تصدق بـــالله، فضلت مجهزلك الإيجـــار، و... و... كل يوم أقول إنك جاي النهارده، وي... وي... وبمرضاش أروح اشتري سجاير... ل... لعند إمبارح بس.

وتثاءب، نظر سلامة إلى عينيه الحمراويتين، وفمه المفتوح صارخًا:

- اقفل.. اقفل.. يخرب بيت أهلك!

وهنا خرج الأستاذ محمد قائلاً:

- أهلاً وسهلاً بســـلامة أفندي.. اتفضل يا راجل، منور، والله باستناك يوم ما تيجي من الباب للشباك .

رد سلامة أفندي:

- الإيجار يا أستاذ محمد.

- حاضر.. حاضر.. ثانية أدخل أحضره لسيادتكم .

2

شرع سلامة أفندي في النزول، لا يشعر بنفسه ولا بالرائحة النتنة، بل كان منتشيًا سعيدًا أن التقط بنظره صورة لظهر جمالات وردفيها القاسيين عليه، يعود ويساوره حزن شديد على تلك المرأة المجنونة، كيف ملكت هذا الجسد الرائع وهاتين العينين الساحرتين وهذين الردفين القادرين؟!، وكيف حصل عليهما ذلك المجنون عزت؟ وكيف يصبح محظوظًا بهذا الشكل، وتخيل عزت وهو عاري البدن وبين يديه جمالات يقلبها على السرير فتضحك بغنج، وتتأوه، فيعض سلامة أفندي شفته السفلى !هل تعيش تلك الجوهرة في حجرة كهذه هي وزوجها وأبناؤها « جمالات» بجمالها لا تعيش إلا في فيلا كالتي يمتلكها «سليم باشا العطار»، ثم هؤلاء الملاعين الذين يسكنون معها في الشقة! كيف تأمن على نفسها معهم؟! إنهم كلاب!، ألا يعي ذلك عزت؟، بالتأكيد لا يعرف، لا يعرف أنه يمتلك جوهرة! آه لو أنها زوجتي، ما ذهبت لعمل قط، ستكون هي شغلي الشاغل، لكن...

هكذا فكر» سلامة أفندي في جمالات»، تذكر تثاءب رمضان، يا ابن المزجنتي عايش أيامك، مجاور جمالات، شرب وسكر ولا في دماغك حاجة، ملعون أبوك، وملعون أبوسليم العطار ابن الكلب، هو لازم شوية القروش اللي بيقرفني بيهم أول كل شهر، ألمهم من شوية حيوانات، ما ينسى البيت ده، وكفاية عنده القهوة مخلصة على ثلاثة أرباع فلوس أهل الحارة، لأ.. راجل بشع، والواد رمضان شغال في القهوة يعني إيجاره معاه،

كان لازم يقرفني علشـــان أضايق وأســـب وألعن أبوه وأهله، يبقى ياخد الإيجار منه ولا أشفشـــي شكله العكر دا .

تحســـس سلامة نفســـه، فوجد أنه لم ينزل إلا درجتين أو ثلاثًا، جاءه الهواء يحمل رائحـــة الطرقة النتنة، صرخ قائلاً:

- ملعون أبو ده بيت، عايشين إزاي؟!

هرول على السلم، نظر في وجه المرأة المستكينة في آخر الردهة، قائلاً:

- يا حاجة سعدية كلها شهرين على العيد، يعني الإيجار المتأخر كله، كفاية كده أنا تعبت!

رفعت الحاجة سعدية رأسها ورسمت على وجهها ابتسامة قبل أن تقول:

- حاضر يا أخويا، أول ما أبيع الخروف الإيجار يوصلك.

نظر إليها سلامة بغيظ قائلاً:

- أخوكـــي إيه يا ولية إنتي، دا إنت جدتـــي!، إنت عايزة تكبريني ليه؟!، جاكـــي خيا يقطع في قلب أهلك!

وتركها سلامة وهو في قمة الغيظ والحنق على الإيجار والبيت، وهنا سقط بقوة على الدرجتين، في منتصف الطرقة، قام ينظف ملابسه التي اتسخت وعلقت بها تلك الرائحة.

- الله يلعن أبو الســـلم، على أبو الطرقة، على أبو البيت ، على أبوكي يا حاجة سعدية، على أبو سليم باشا العطار، على أبو العطار نفسه، على أبو جمالات، واللي ساكنين فوق.

وتلفت حوله كمن يبحث عن شيء، لكنه طبيعيًا لم يكن بالطرقة إلا الخروف، وأكمل قائلاً:

- ويلعن أبوك يا خروف إنت كمان!

دلف سلامة أفندي يمينًا سائرًا أمام القهوة، جذبه صوت أم كلثوم، ورائحة الشاي تزيده انتعاشًا، دخل القهوة ونادى على النادل:

- واحد شاي وحجر شيشة.

أجابه النادل بأنه سمع، ثم دقائق معدودة كان بعدها يأتي إليه حاملًا صينية عليها كوب شاي، والشيشة في يده الأخرى، فبدأ كالبهلوان المحترف، انحنى أمام المنضدة واضعًا عليها الصينية، ثم جذب نفسين من الشيشة كما لو كان يشعلها، ودفع إليه بمبسمها يجذب منها، ومضى بطريقة آلية إلى مكانه المعهود تحت الراديو، ساندًا بإحدى ذراعيه على المنضدة الرخامية الكبيرة التي تلقى عليها الطلبات ومحني وسطه بإعوجاج.

جذب سلامة أفندي نفسًا عميقًا من الشيشة، وأطلقه متراقصًا مع صوت أم كلثوم، وأخذ على هذه الحالة إلى أن تكون فوق رأسه سحابة من سحابات الدخان التي تملأ المكان، كذلك فإن صوت النراجيل كون سيمفونية رائعة مع موسيقى أم كلثوم، نظرًا لسحابة الدخان تخيل فيها ظهر جمالات رائعًا، رشف رشفة من كوب الشاي الدافئ، زاده سخونة، تربعت جمالات بعقله، آه.. نطقها بقوة متحسرًا على البنت الجميلة التي سرقها الوحش عزت في غفلة من أهلها، تذكرها وهي تحدثه، أحس بزفرة مكتومة تحرقه من الداخل، أنهت أم كلثوم الأغنية، أذاع الراديو، هنا القاهرة.. الساعة الآن التاسعة، أُغلق الراديو، سُمع النادل ينادي:

- يا رمضان.. الساعة تسعة يا رمضان تعال استلم.

ونزل رمضان بعينيه الحمراويتين الواسعتين قائلاً:

- إ... إ... إيه يا سعيد، إنت امبارح جيت متأخر، هو... هو... هو أنا مشيت، دا... دا أنا فضلت مستنيك.

رد سعيد بغيظ وحنق، قائلاً:

- أنا سهران طول الليل ومش ناقص تهتهه.

- أ.. أ.. أمرك يا سعيد، دا إنت تأمر وأنا أنفذ.

سمع سلامة أفندي الحوار بين النادلين متعجبًا. قطع تفكيره رمضان قائلا:

- أ.. أ.. أهلاً وسـهلاً بسـلامة أفندي، إيه يا راجل.. هو حضرتك مشرف على قهوتنا.

- بقولك إيه يا رمضان، ابعد عني وامشي !

دخل سلامة أفندي في حوار صامت مع نفسه:

- شوف شـوية الملاطيش دول، واحد زي رمضان ابن الكلب لو نفضته على آخره متلاقيش معاه تلاتة أبيض، ويقولي مشـرف على القهوة بتاعتهم، والله غريبة، والتاني المسلوع زوج جمالات، يقولي أنا بنفسي هجبلك الإيجار! ليه؟! فاكر نفسـه مين النقراشي باشا، وللا علي مبارك !

جذب سلامة أفندي نفسًـا عميقًا من الشيشة وأخرجه ببطء شديد كأنما ليستعين به على تهدئة أعصابه الثائرة من ألفاظ رمضان وعزت.

3

لم يكن رمضان بعد خروج سلامة أفندي من القهوة في حالته الطبيعية، فهو لم يزل يقاوم تأثير المخدر الذي شربه ليلة أمس، جلس على الكرسي يحاول أن يضبط نفسه، وجود الناس على المقهى في الصباح خفيف جدًا، لذا كان الأمر مناسبًا لأن يسرح في طريقة للحصول على المال، دارت برأسه عدة أفكار منها لو أنه سرق خروف الحاجة سعدية، ولكنه عدل عن هذا مستغربًا، كم ثمن الخروف؟ وهل سيكفي شهرًا أو شهرين؟ وبعدها!، فكر فى سرقة محل بقالتهم!، ولكنه عدل عن هذا أيضًا، هذا قوت إخوته، ورزق أبيه، وأمه ستصاب بالشلل إذا علمت بذلك وربما ماتت.. وبينما هو على هذه الحالة دخل رجل قمحي البشرة يميل إلى السمرة يرتدي جلبابًا بلديًا أزرق، ذو شارب عريض وطويل، قائلًا:

- واحد شاي وشيشة يا ابني.

جاء بالطلب مسرعًا، فأخرج الرجل من صديري الجلباب ورقة بخمسين قرشًا

- الحساب يا ابني.

نظر إليه رمضان مستغربًا، قائلاً:

- الحساب.. ث.. ث.. ثلاثة قروش شيشة، و.. و.. وقرشين شاي، ي.. يعني كله خمسة قروش.

قال الرجل:

- يبقى عشرة قروش..

- نظر إليه رمضان، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء متداخلة مع عينيه الحمراوتين، قائلاً:

- ث.. ث.. ثانية.

قال الرجل:

- هات خمسة وعشرين قرشًا ونبقى خالصين.

نظر إليه رمضان، الذي أحس أن قلبه قد غادر صدره من الفرح، قائلاً:

- إ.. إ.. إحنا لسه بنقول يا فتاح.. يا كريم.

قال الرجل:

- نبقى....

ولم يكمل حديثه حين دخل، طه الساعي - موزع المخدرات على شباب الحارة والحواري المجاورة - قائلًا.

- يا ألف مرحب بالمعلم نبراوي .

قام الرجل من مكانه ملتفتًا إلى مكان الصوت، قائلًا:

- أهلًا يا معلم طه.

قال طه وما زالت الابتسامة معلقة على شفتيه:

- إزاي يا معلم نبراوي!، لما سيد المعلمين يقول لصبي من صبيانه يا معلم، لأ.. لأ.. يا معلم أنت كده بتكبرني زيادة عن اللزوم .

قال المعلم نبراوي مبتسمًا:

- ألا صحيح قولي الشغل عامل معاك إيه؟

- كله تمام يا معلم .

ونادى على رمضان، قائلاً:

- طلبات المعلم عندي.

قال المعلم نبراوي:

- أنا حاسبت خلاص.

ودخـــل طه والمعلم نبراوي في حوار، كيـــف وأنت ضيف عندنا، انتهى الحوار عندما صمتا برهة، ثم مال طه على المعلم نبراوي وهمس في أذنه، فابتسم الآخر قائلًا:

- قريب، وكله بأجره.

انفرجت أسارير طه ثم استأذن فى الذهاب. جاء رمضان الذي سجل برأسه الحوار ما بين طه والمعلم نبراوي، قائلًا:

- أ.. أ.. أنـــت يا معلم ليك خمســـة وعشـــرين قـــرش، وى.. وى.. وثانية....

قاطعه، قائلًا:

- مالوش لزوم.. مبروك عليك.

ذهب رمضان إلى مكانه، بعدما شكر الرجل كثيرًا، يفكر في الخمسين قرشًـــا التي حصل عليها ســـريعًا من طلب واحد، ثم تطـــرق بفكره إلى كيفية حصـــول المعلم نبراوي على رزمة الجنيهـــات التي في الصديري،

وأدار برأسه الشـــريط منذ دخول المعلم القهوة حتى خروجه منها، وبدأ يتفلسف في الحوار والأحداث، على كلٍ فبعد الحوار ودخول طه الساعي موزع المخدرات ومعرفته بالمعلـــم نبراوي، والهمس الذي دار بينهما، كل ذلك كان داعيًا لرمضان ليترك المجال في البحث عن الأموال، والتفكير في مجال أســـرع للثروة، وقال لنفسه: هانت يا رمضان.. كلها كام يوم وتعـــرف طريقه وتبقى مـــن أكبر الموزعين، والفلـــوس تجري في إيدك، وتلبس نفس الجلباب البلدي، وتتجوز أحسن بنت في الحارة.. لأ.. لأ.. حارة مين؟! أنا لازم أناسب بيت العطار، وأبقى رمضان العطار، وأبويا وأمي يتهنوا يومين بالفلوس، مـــع إن أبويا عمره ما يصدق دايمًا يقول:» الواد رمضان واد خايب مافيهوش رجاء.. خلاص يابا لازم تعرف إن رمضان لما بيشغل دماغه بيكون بفلوس».

– شيشة يا رمضان .

هـــذا ما أيقظ رمضان من حلم اليقظة قائلاً دون أن يلتفت إلى مكان الصوت:

– حـــ.. حا.. حاضر .

4

لم يكن حـــذاء محمد أفندي قـــد دب على أرضية الصالة بســـحبته المعروفة، معلنًا بذلك ذهابه للعمل ومؤكدًا تمام الثامنة، حتى صرخت جمالات قائلة:

- عزت.. عزت.. قوم يا راجل.

لم تلق تلك الكلمات أي صدى لدى عزت، وكأنه جثة هامدة، صرخت ثانية:

- يا عزت.. محمد أفندي مشي على الشغل الساعة تمانية يا عزت.
- بدأ يلوح بيده مشيرًا بالرفض، فقالت تستعطفه:
- يا عزت قوم.. دا مافيش لقمة للعيال يغيروا ريقهم عليها.

فوضع نصف الوسادة على رأسه:

- جمالات.. أنا تعبت امبارح من اللف.. مش قادر.

قالت جمالات بنبرات حزينة:

- معلش يا خويا.. إحنا نعمل إيـــه بس؟.. وبصراحة كده أنا بقيت مكســـوفة أطلب فلوس تاني من الحاجة سعدية.

نظر إلى عياله وقام متكئًا على السرير، لفت ظهره بذراعيها ومسدته.

- يا ربي.. أنا امتى خلفت العيال دول؟! دا أمهم لسه لهطة قشطة!

قامت من خلفه وواجهته بنظراتها:

- العيال دي تكبر، ونجيب تاني .

قال عزت مبتسمًا:

- ليه يا جمالات؟ لسه هستنى دا كله؟!

قالت جمالات وقد بدأت تتلوى مظهرة مفاتنها:

- خلاص أول عيل يكبر فيهم نبعتوا الورشـــة أو القهوة يشتغل ونجيب غيره.

رد وقد بدأ يقترب منها:

- آه.. إن كان كده أستحمل.

ابتعدت جمالات عنه وهي تظهر الجدية على ملامحها:

- طيب.. طيب.. مش دلوقتي.. روح هات أي حاجة نفطر.

أيقظـــت جمالات أولادها الصغار، وبدأت تفتش عن عمل أي شـــيء في حجرتها، كانت تعلم أنه لا شـــيء موجودًا، لكنها اعتادت ذلك حتى تحفزه على النزول، حجرتها تتكون من باب وشباك، الباب معلق عليه من الخلـــف شماعة ملابس، تمدد منها جلباب نوم عزت، وشـــباك عليه قلة، وسريرين، سرير أُلقى عليه أطفالها فى نظام هندسي بديع، فهذا يده في أنف هذا، والآخر قدمه في فم ذاك، والسرير الآخر خالٍ، أما الأرضية فهي، حصيرتان، يفصلهما أرضية أسمنتية من الباب وحتى الشباك، إحداهما تعمل محل الدولاب في الوقت الراهن، فعليها ملابس الأســـرة، وقد حرم عليهم جميعًا على عدم الاقتراب منها، أما الثانية فهي تحل محل الصالة، وهي مكان جلوسهم وتناول وجباتهم.

أخذت جمالات القلة وغيرت ماءها، وكنســت الطرقة، وأعادت ترتيب الملابس، ثم خرجت الـى السلم قائله

- صباح الخير يا حاجة سعدية.

وقبل أن تنطق الحاجة سعدية، دخلت مسرعة إلـى الشقة، وهي تنادي قائلة:

- رمضان.. يا رمضان قوم الساعة يجيلها تمانية ونص، قوم علشان لو كنت هتاكل لقمة قبل ما تروح القهوة.

وهذه عادة عند جمالات تقولها كل صباح، ومرة يجيبها قائلاً:«شـــ.. شـــ.. شكرًا يا ست جمالات، صـــ.. صـــ.. صبحيلنا على عزت»ومرات لا يرد، على كل فهي فعلت ما توجبه عليها الجيرة، كانت الســكنى في بيت مع جيران أمرًا طبيعيًا للحالة التي عليها الناس، الفقر يضرب كل شـــيء، ولا حيلة سوى الالتفاف على الظروف وقهرها بكل السبل، الكثير يعاني، حتى إن هذه البيوت وحجراتها أصبحت أمرًا عاديًا، وأصبح الجميع بحكم الظروف أخوة، تعرف جمالات أن الناس هنا سواسية، حقيقي أنها تتعـــب مع زوجها في مســألة قلة الرزق، لكنها تعلــم أن رمضان ومحمد أفندي هما أغراب، ولكن عليها تقبلهما ووضعهما في مكانة جيدة.

دخل عزت قائلاً:

- جمالات.. أنا جبت الفطار.

أجابت جمالات التي كانت واقفة في الشباك تنظر إلـى الناس والمكارية الذين يسحبون الحمير بالأفندية:

- حاضر يا سي عزت.

- الحمد لله .

قالتهـــا جمالات، فكانت آخر من قام من علـــى الأكل، ولمت البقايا وأرســـلتها مع ابنها إلى الحاجة ســـعدية للخروف، وأكملت:

- احكي لي يا عزت.. تعبت إمبارح من اللف إزاي ودورت فين؟

نظر إليها عزت الذي قرب ما بين حاجبيه، وعقد جبهته، وبدت نبرات صوته حزينة، قائلاً:

- شوفي بقى يا جمالات.. رحت للحاج حسن العتال.

لم تدعه جمالات يُكمل - كعادة النساء -، فقاطعته قائلة:

- الحاج حسن العتال.. ودا بيشتغل إيه يا عزت.

نظر إليها بافتراس وقد زاد من عقد جبهته، وبدأ حاجباه في الالتماس قائلاً:

- اصبري يا جمالات.. ما أنا جاي في الكلام...

وأكمل:

- الحاج حســـن العتال.. دا يبقى كبير العتالين في مجيرة السعافنة، وكان وعدني من يومين ثلاثة يشوفلي مكان في المجيرة بدل أي عتال هناك، لكن يا ستي العتالين متبتين في أماكنهم، رحت على شعراوي الطبال.

لوحـــت جمالات بيديها كمان يصـــرخ دون أن تصدر صوتا»، وأردفت قائلة:

- على آخر الزمن هتشتغل مع الطبالين.

ضحك عزت، قائلاً:

- ده منى العين أن الواحد تقبله رقاصة، يا ريت نعرف نلاقي شـــغل في شـــارع عماد الدين أو حديقة الأزبكية أو شارع محمد علي، إنت عارفة الواحد بيدفع كام عشان يدخل كازينو بديعة، ويا ستي إنت مزعلة نفسك ليه؟ مفيش مكان عنده، هو عايز واحد يكون بيعرف يطبل أو يلـــم نقطة، وأنا ما بعرفش، المهم رحت على المعلم جمعة بتاع الفرن، ودا كلامه يطمن، وهنا انفرجت أسارير جمالات قائلة:

- إيه ياخويا... قال إيه؟

- قال «أصبر عليا كام يـــوم»، وعنده عامل هيصفي عمله، ممكن أروح اشـــتغل مكانه، ودا كلام أكيد إن شاء الله.

ثم بدا حزينًا وهو يقول:

- بس يا جمالات الواحد بينه وبين التاني زي من هنا لإسكندرية.

قالت جمالات وعلى وجهها ملامح الجد الممزوج بالحزن:

- ربنا يسهلك يا عزت.

5

- صباح الخير يا حاجة سعدية.

قالها عزت وهو ينزل إلى الطرقـــة، خارجًا للبحث عن عمل كعادته، حتـــى تنقضي الفترة الـــتي أعطاها له المعلم جمعـــة للعمل بالفرن. لم ينتظـــر حتى ترد، فهـــو ليس في انتظار ردها، كونـــه لم يعرف منها إلا كل حـــب، حتى إنها تعتـــبر جمالات مثل ابنتها الـــتي لم تلدها، وعزت مثل ابنها الذي ظلت تنتظـــره، دائمًا ما تدخل على أبناء عزت بالملابس في الأعياد، ومع بدايات موســـم الشتاء، وكثيرًا ما تشتري اللحم في أيام الجمع والمواســـم ولا تأكله إلا مع أبنائه، ولا تذهب إليها جمالات طالبة للمال إلا وأعطتها بأكثر مما تطلب، وعند ردها لا تأخذ إلا القليل منه، وإن لم تكن في حاجة إليـــه لا تأخذه - لكنها ردت قائلة:

- يسعد صباحك يا عزت.

نزل رمضان قائلاً:

- صـــ.. صـــ.. صباح الخير يا حاجة سعدية.

ردت الحاجة سعدية :

- ربنا يهديك يا رمضان وترجع لأبوك.

لم يلق رمضان لما قالت بالًا، ولكنها أكملت:

- صباح الخير يا رمضان .

نزلت جمالات للجلوس مع الحاجة ســـعدية في الطرقة كعادتيهما كل صباح.

- صباح الخير يا حاجة .
- يسعد صباحك يا بنتي، عاملة إيه مع عزت في العيشة الصعبة دي؟

ولم تترك لها فرصة للإجابة.

- اللا هو لقى شـــغل ولا إيه؟، بقى له كام يـــوم ينزل الصبح، يدوب يصبح ويجري!

احمر وجه جمالات، وأطرقت إلى الأرض وأصابت نبراتها مسحة حزن.

- لا والله يا حاجة سعدية، كل يوم يدور بس مش عارفة الحظ ملطش معاه قوي، كل يوم أصحاب الشـــغل يوعـــدوه بعد يومين ولا ثلاثة، وأهو على كده، يعمـــل أي حاجة ناكل منها يوم وتخلص، هنعمل إيه؟!! امبارح صاحب فرن وعده وعد أكيد إنه يشـــتغل معاه، وربنا يســـهل، وبصراحة أنا تعبت لكن هعمل إيه طيب، ما باليد حيلة.
- السلام عليكم.

التفتا للصوت المعهود لديهما، محمد أفندى قاطعًا حديث جمالات.

ردت الحاجة سعدية:

- عليكم السلام، أزيك يا أســـتاذ محمد؟ مش هتطاوعني وتشوفلك بنت الحلال اللي تريحك؟ صحيح أنا ما تجوزتش، لكن الكل بيقول إن الجـــواز حلو، وبدل ما تعيش عزابـــي، هتلاقي وحدة تطبخلك، وتونسك .

- لســـه بدري يا حاجة، الجواز مش بالســـهولة دي، لازم أشـــوف شقة وأكوّن نفسي، وللا عايزاني أعيش أنا وهي في أوضة، عارف هتقولي بعد كده يبقى شـــوف الشقة، مقدرش يا حاجة أصرف على واحدة والإيجار، لازم أكوّن نفســـي وبعد كده أفكر في الزواج.

وصعد محمد أفندي لحجرته، ودخلت الحاجة ســـعدية وجمالات في حوار عن الذين تزوجوا، وعن أهل الحارة وخطابها ودلالاتها ومشـــاكل الزواج والطلاق التى لا تنتهي.

نزل محمد أفندي مشيرًا لجمالات قائلاً:

- لو سمحت يا ست جمالات، ركبي زرار القميص ده.

أخذت جمالات منه القميص قائلة:

- من عينيّ يا أستاذ محمد.

وصعد محمد أفندي، وما أن تأكدت الحاجة سعدية من أنه قد دخل حجرته حتى قالت لجمالات:

- حرام عليه شبابه اللى مضيعه.

نظرت إليها جمالات باســـتغراب، رافعة كتفيها، مشـــيرة إلى أنها لا تملك أي إجابات عن هذا الســـؤال، ولا تعلم ماذا تقول؟ إلا أنها تابعت تلك الإشارة قائلة:

- والله يا حاجة ســـعدية مش عارفـــه أقولك إيه؟ لكن هو يعني يعرف يتجوز في أوضة؟! الأحســـن إنه يستنى كمان شوية لعند ما يجمع قرشـــين يأجر بيت من بابه يعيش فيه هو ومراته .

نظرت إليها الحاجة سعدية في ضيق قائلة:

- اســـكتي.. أنا مجوزتش آه.. لكن سمعت مـــن كل اللي تزوجوا، إن أحلـــى حاجة في الدنيا الجواز، والنبي لـــو كان على الرصيف حلو، آه.. والنبي حلو!

ابتسمت جمالات قائلة:

- أنا خلصت القميص.. أطلعه يمكن يكون عايزه.

صعدت جمالات الســـلم، وطرقت باب حجرة محمـــد أفندي، لم تكن تختلف كثـــيرًا عن الحجرات الباقية، فهي تحتوي على ســـرير ودولاب وحصيرة وكرســـي ومنضدة، مكتظة بأكوام الكتب، وشـــباك عليه قلة مقطوشـــة من طراز قلل السلطان محمد علي باشا، ويجاورها زهرية بها شـــجرة ريحان وبعض شـــجيرات نعناع، وكان محمد أفندي جالسًا إلى الشباك، ينظر إلى الشـــارع ورواد القهوة، وما أن دخلت جمالات حتى قام مرحبًا بها قائلاً:

- أهلاً.. أهلاً يا ست جمالات.

- أنا ركبت الزرار، أي خدمة تانية؟

- كتر خيرك يا ست جمالات .

ونظـــر إلى عينيها، ليســـت المرة الأولى التى يرى فيهـــا تلك العينين العسليتين، وذلك الوجه الأبيض المائل للحمرة والشعر الأصفر المنسدل مـــن تحت غطاء الرأس على جبهتها، والصدر النافر، ليســـت المرة الأولى الـــتي يتبلل فيها بالعرق وينظر إليها بشـــهوانية تكفي لأن يرتعش قليلًا ويبلع ريقه بصعوبة:

- رأيك إيه يا ست جمالات في كلام الحاجة سعدية؟

نظرت جمالات إليه مبتسمة، كثيرًا ما تمنت أن تتحدث مع رجل من ذوي الكتب، تسمع عن المثقفين وأحوالهم، وتعرف أن محمد أفندي منهم، هؤلاء الذين يلبسون البدل، ويأكلون أشهى الأطعمة، الذين يعملون في الحقانية وفي المخافر وغيرها، نظرت إليه.

- والله أنا تكلمت مع الحاجة سـعدية، ورأيي من رأيك، ليه...؟، لأنه ميصحش أنك تتجوز في أوضة لغاية ما تأجر بيت، وتعيش فيه أنت ومراتك، وعادي خالص لما تتأخر سنة واللا سنتين، الدنيا مطارتش، المهم تعيش عيشة كويسة، يبقى تستنى شوية.

- على فكرة يا جمالات...

آه !.... هـو لأول مـرة ينظقها علنًا، يا جمـالات، ولا يدري كيف تشعر باسمها؟!، ردد صدى اسمها على أوتار أذنه، شعر به رائعًا في معناه، منسجمًا في حروفه، وكانت هي الأخرى في حالة نشوة وسعادة وأكمل:

- تفكيرك منطقي جدًا ومظبوط .

نظرت جمالات وهي في كامل النشوة والسعادة، فكلامه يعتبر شهادة من رجل مثقف، قائلة:

- شكرًا يا محمد أفندي .

قاطعها محمد أفندي قائلاً:

- ليه كلمة أفندي، شيليها عايز أحس بجمال اسمي!

ثم أكمل:

- إيه رأيك لو نرفع الألقاب، إنتي جمالات، وأنا محمد.

ضحكت جمالات، فكشفت عن جمال أسنانها البيضاء المتناسقة قائلة:

- أنت محمد، وأنا جمالات....

ثم ابتسمت ابتسامة جذابة، وأكملت:

- طيب إيه خدمة يا محمد أفـــ.. .، محمد بس؟

ضحكا، ثم قال:

- الله.. شوفتي اسمي فيه روح إزاي وهو طالع منك؟!

- مع السلامة يا جمالات.

وحين اســـتدارت رأى ردفيها وهما يتحـــركان ببطء متمايلين بوقار، فعض على شفته بقوة.

6

جلس رمضان على الكرسي تحت القطعة الخشبية التي يستقر الراديو عليهـــا، كان ينظر بغيظ إلى زبائن القهوة وأهـــل الحارة، دارت في عقله أحلام الغنى، وكيف أنه - ذات يوم - ســـيكون من ذوي الأملاك؟!، يناطح سليم العطار، ويغير من وضع أهله، متخيلاً نفسه صاحب الحارة!، كان بحكم عمله كنـــادل قد عرف معادن أهل الحارة جميعًا، ومدى حبهم أو كرههـــم للآخرين، كون في عقله خريطة جديـــدة لأهل الحارة الذين ســـيظلون فيها، وكيف ســـيصب لعناته وغضبه على الباقين من قطاع الطرق أو أبناء الليل، وفجأة دخل المعلم نبراوي بجلبابه الأزرق، والشـــال الذى لا ينزل من كتفه إلا عند النوم كحال أهل الصعيد، له شـــاربان شركســـيان، يغطيان ثلث وجهه الطويل الأسمر، حاد الملامح، نظراته لا توحي بالوداعة، غير أن شـــخصيته على العكس تمامًا من ملامحه، كان من أكثر الناس هدوءًا وتعقلًا.

صفق قائلاً:

- واحد شاي وشيشة يا رمضان.

لم يكـــن رمضان ليتحرك من مكانه، إثر سماعه المعلم نبراوي يناديه باسمـــه، على كل، وقف لحظة ثم انطلق وهو يقول:

- أ.. أ... أمرك يا معلم نبراوي.

وجاء بالطلبات واضعًا إياها أمام المعلم، وساحبًا كرسيًا خلفه، جلس عليه قائلاً:

- تـــ.. تـــ.. تسمحلي أقعد معاك شوية يـــ.. يـــ.. يا معلم؟

- اتفضل يا رمضان .

- أ.. أ أنت عرفت اسمي منين؟!

- وأنت عرفت اسمي منين؟!

- مـــ.. من الواد طه الساعي .

- وأنا كمان عرفت من الواد طه الساعي .

لم يكن رمضان ينطق بالسؤال التالي، حتى صرخ أحد الزبائن قائلاً:

- واحد ينسون وشيشة يا رمضان.

قام رمضان من مكانه بعد ما اســـتأذن المعلـــم نبراوي في الانصراف، لاعنًا وســـاخطًا على ذلك الزبون الغبي الذي تسبب في طيران فرصة لن تعوض، تناول رمضان الطلبات من على المنضدة الرخامية، ذاهبًا بها إلى الزبون وهو في غاية الضيق والحنق، قائلاً:

- خـــ.. خـــ.. خد الينسون والزفت يا زفت.

نظر إليه الزبون باستغراب، قائلاً:

- أنا زفت يا ابن الزفت!

ثم نظر لمن بالقهوة كأنما يُريهم انتصاره على رمضان، وأكمل:

- شـــوف رمضان تهته ابن الكلب، بتاع المخـــدرات والزفت على دماغه ودماغ أهله، ودماغ بتـــوع المخدرات كلهم .

لم يتحمل رمضان، تعلق بعنق الرجل عندما سمع «ودماغ بتوع المخدرات كلهم»، كان قد فهـــم أن الرجل يقصد المعلم نبراوي. وفي لحظات قام زبائن القهوة وعاملوها، وانتزعوا الرجل من بين مخالب رمضان، وقام المعلم نبراوي وأخذ رمضان من يده، وأجلسه بجواره على المنضدة، فقال رمضان:

- يـــ.. يـــ.. يعني ما شفتش يا معلم نبراوي، الـــ.. الـــ.. الكلب ابن الكلب بيقول إيه؟

- وأنت إيه رأيك؟

- في.. في.. في إيه يا معلم؟

- إنك تكون من اللي الزفت على دماغهم ودماغ بتوع المخدرات.

ابتســـم رمضان ابتسامة لا ترى بسبب شـــدة احمرار وجهه وشهيقه وزفيره المتتالي، قائلاً:

- أ.. أ.. أمرك يا معلم.

وأيضًا لم ينتظر رمضان ليســـمع باقـــي كلام المعلم، إذ انطلق صوت جاء في أذنيه كأنـــه صرخة، حينما قال زبون:

- رمضان.. إيه يا سي رمضان، نبوس على رجلك علشان نشرب شوية شـــاى، ما تخلص ياسي رمضان، إنت لو كل زبون وقفت تحكي معاه خمس دقائق، يبقى الزبائن هتقف تخدم عليك!

من غير أن ينظر إلى القائل، رد قائلاً:

- أ.. أهلاً يا عزت، ثانية ويكون طلبك وصل .

وانطلـــق رمضان ناحية المنضدة الرخاميـــة وجهز الطلب، وانطلق به ناحية عزت واضعا إياه على المنضـــدة الحديدية أمامه، قائلاً:

- الـــ.. الـــ.. الحساب وصل .

- كتر خيرك يا رمضان .

- لأ.. لأ.. وصل .

وانطلق رمضـــان الذي لم يعط فرصة لعـــزت لتكملة كلامه ناحية منضدة المعلم نبراوي، وما أن استقر نظرة عليها حتى علت وجهه مسحة حزن حين وجد أن «طه الساعي» يجلس بجواره، ومع ذلك سحب كرسيًا وجاء به إلى المنضدة قائلاً:

- أ.. أ.. أهلاً يا معلم طه .

- مرحب برمضان تهته.. عايز تشتغل معانا.

والتفت إلى المعلم نبراوي قائلاً:

- يا معلم الواد دا ما ينفعش، دا آخره يشـــتغل في القهوة، والقهوة دي بالذات، لأنه عارف أهل الحارة.

رد المعلم نبراوي قائلاً:

- لأ.. لأ يا راجل، رمضان شكله يقدر يوزع كل البضاعة المشحونة.

ابتســـم رمضان، إلا أنه كان داخليًا يصب أقذر اللعنات على دماغ طه الساعي، قائلاً:

- تـــ.. تـــ.. تسلم يا معلم.

ثم التفت إلى طه الساعي قائلاً:

- يا معلم لازم تجربني .

ضحك طه الساعي ضحكة عالية، سابًا فيها رمضان قائلاً:

- يخرب بيت أهلك يا رمضان تهته.

وأكمل قائلاً:

- ماشـــي خد أنت المقطع بتاع حارة العطـــار، وكل يوم أعدي عليك أشحنك وآخذ المعلوم.

نظر إليه رمضان:

- مـــ.. مـــ.. مش ممكن أتعامل مع المعلم نبراوي على طول.

نظر طه الساعي صارمًا وقائلاً:

- أنت عايز أول ما تشطح تنطح!

أومأ رمضان برأسه دليل الموافقة، قائلاً:

- يـــ.. يا.. يا معلم جربني، تلاقيني أفوت ف الحديد!

قال طه الساعي:

- يا تهته....

ضحك المعلم نبراوي على كلمة «تهته»، فانطلقا ضاحكين مجاملة له، بينما كان رمضان فى نفســـه يسب الاســـم إلا أنه انصاع لرغبة فى الوصول تدق بداخله ثم ليكن ما يكون.

- أ.. أعدي عليك أمتى يا معلم.

- بعـــد ما تخلص ورديتك، فوت علـــى المعلم طه، يجيبك نتفق على تعاملك هيكون إزاي ومنطقتك ونظام الســـير وتوريد المعلوم.

- رمضان.. يا رمضان واحد شاي وشيشة .

وهكذا انطلق بها أحد الزبائن، فكانت مفرقة لثلاثتهم.

7

- أنا جبت الفطار يا جمالات.

- يا رمضان.. قوم الساعة قربت على تمانية ونص .

لم يجبها رمضان، وهي الأخرى لم تكن تنتظر منه إجابة .

- الحمد لله .

نطقتها جمالات مع انتهائها من مضغ آخر لقمة موجودة على حصيرة المائدة، قبل تناولها القلة لتشرب. انطلق عزت باحثًا عن لقمة عيش لأولاده، وهى كالعادة نزلت للحاجة سعدية لقتل أكبر وقت ممكن من فراغها .

- صباح الخير يا حاجة سعدية.

- يسعد صباحك يا بنتي .

ثم قالت:

- بس لو محمد أفندي يطاوعني في موضوع الجواز دا أنا كنت شفت له عروسة أجمل منك، ولو إن طلباته إنها تكون مثلك، ظنًا منه إن مافيش أجمل منك.

قالت جمالات مبتسمة:

- ودي مين اللي هتكون أجمل مني؟!

- البت بهية بنت منصور الفرارجي.

وأكملت:

- أنا عارفة البت دي جابت الجمال دا كله منين؟!، دا أبوها وشـــه ولا قعر كنكة شـــاي وأمها وضة بت عبعال الضلم.

ردت جمالات بشيء من الجد، بعد ما أنهكت نفسها في الضحك على عائلة العروسة، قائلة:

- بقى يا حاجة سعدية عايزة محمد أفندي الراجل الحليوة، يرضى إنه يناسب عيلة الضلم؟! ليه؟!، هي البنات خلصت.

حملقت الحاجة ســـعدية فيها، كأنما تبحث في كلامها عن شـــيء، فقد شـــعرت في كلام جمالات إصرارها الشـــديد على رفض زواج محمد أفنـــدي في الوقت الراهن، كذلك رفضهـــا أن يتزوج في حجرة، اعتقادًا منها أن التي ستأتي ســـتخطف الجو من جمالات، ثم قالت:

- إيه يا بت يا جمالات، إنتِ...

وسكتت برهة، كمن تراجع نفسها في إخراج الجملة، ثم قالت:

- إنتِ خيطي الزرار بتاع محمد أفندي؟

وســـكتت، فهي لا تدري معنـــى الجملة، ولا موقعهـــا في الكلام، ولا ارتباطها بالحديـــث، وأكملت:

- وطبعًا دخلت الأوضة عنده.

كل هـــذا وجمالات تنظر إليها بعجب!، أما هي فلا تعرف ماذا تفعل، ومـــاذا قالت، لكنها خرجـــت من الحديث بفكرة لطيفـــة، حتى لا تفقد صديقتها الوحيدة، قائلة:

- وطبعًا شوفتي البدل والهدوم الملونة؟!

قالت جمالات كمن وجـــدت هي الأخرى فرصة في رد الحديث بعيدًا عن سوء الظن:

- لأ.. دا أنا أديته القميص من على الباب.
- يا بت يا جمالات، دا إنت اتأخرت لما نزلت عليّ !
- لأ.. لأ دا كان العيال في الأوضة قلت أطل عليهم .
- يا ريت يا جمالات .

هكذا ردت الحاجة سعدية، كمن تكذب جمالات، وأكملت:

- ألا عزت عامل معاكِ إيه؟... ربنا يعدل حظه .

قالت جمالات، وهي رافعة يدها إلى السماء:

- ربنا يسهل ويستلم الشغل من بكرة، قادر يا كريم.

واستأذنت جمالات في الصعود، لتلقي نظرة على أبنائها.

8

كانت سعدية ترى أن جمالات جميلة فعلاً، فهناك شي يشبههما معًا، سعدية التي عانت في حياتها وراح شبابها مع السنين التي جرت على الخد وملمت جلدها على بعضه، وهي تحس أن جمالات تبعثر جمالها الآن، مثلما بعثرت هي جمالها قديمًا، كانت تحب أن تكون ببيت لرجل مقتدر يصرف عليها وتمنحه الحب بقوة، وجمالات الآن أيضًا تفشل في هذا، وتمنح نفسها لمن لا يستحقها، تذكرت كيف كانت قديمًا، أمسكت وجنتها.

— آه.. راح جمالك يا بت يا سعدية، فين الترعة وزلع المية والشعر الأسود الجميل والعيدان المشوقة الملتفة والأستاذ حسن ابن الشيخ عبدالمجيد العوضي شيخ الباطنية وفقي الحتة وعيال البلد كلتها تعمله ألف حساب آه.. كانت الفلكة وهات يا ضرب على رجل العيل لما تورم كانت العيال كلها حافظة القرآن.. ولما كان يقول «سمعّي يا بنت.. حافظة اللوح وللا هتهتهي وإنتِ بتسمعي.. نقوم على الفلكة».

لم تكن العصا لتلمسها لولا نظرات حسن، ظل ينظر إليها في خوف وترقب خشية أن تخطئ، وقع المحذور، أخطأت.. ففوجئت بالعصا تنهال على جسدها.

تنهدت وسحبت نفسًا عميقًا .

«يا سلام... كان كل ولاد البلد حافظين القرآن، إلا عيال عيلة فؤاد الجلخ، كانوا عيال فتوة، وفاكرة لما أنا مسكت الشبشب وهات يا ضرب على رأس الواد جمعة الجلخ لما حاول إنه يبصلي من يوميتها والعيال يضحكوا عليه ويقولوا له» بقى البت سعدية بنت عمران المكري تضربك بالشبشب!» صحيح كان أبويا عمران المكري لكن كان وللا أشرف راجل في البلد، وكان العمدة ذات نفسه يعمله ألف حساب، لأنه كان راجل حقاني لعند اليوم المشؤوم لما جه كان يوم أسود»!!

وتنهدت الحاجة سعدية تنهيدة كأنها تتخلص من خوف قديم في نفسها

«كان يوم ما أعرفش البلد كلتها وقفت ضدي ليه؟! مع إنهم عارفين!! كنت رايحة لأبويا بالغداء في الغيط، قابلتني البت صباح الجلخ)رايحة فين يا سعدية؟ (، رايحة لأبويا بالغداء.. في غيط البرانية .»

- تعالي نمشي من طريق الجبل.
- لأ يا صباح الوقت ضهرية.. حد يطلع علينا!!
- حد مين يا بنت؟!.. دا أنا اللى عيلتي بتطلع على الناس!!
- ماشي يا صباح، نمشي من طريق الجبل.

وتذكرت كيف طلع علينا الولد جمعة الجلخ، وقال لصباح» معاكي قلة؟ أشرب؟» قالت صباح: لأ، واتجهت نظرات صباح على سعدية: اديله يشرب يا سعدية؟ لكن سعدية رفضت: لا، الواد دا ما يحطش بوزه العكر على القلة اللى بيشرب منها أبويا، دا واد نجس ومعجون بمية عفاريت، لكنه على حين غفلة أمسك القلة وطار يسابق الريح، وصباح جرت وراه، وقتها نادت عليها سعدية، سيبك منه يخدها مش عاوزينها، ونادت عليّ صباح، يومها لم تقص سعدية ما حدث لأبيها خوفا من أمر ما، وفي المساء

كانت البلد برمتها سمعت بالذي جرى، جمعة الجلخ وسعدية يتقابلان كل يوم في الجبل، لم يصدقه أحد فأخرج القلة أمامهم، كانت تأكيدًا أنها لسعدية، حاولت الدفاع عن نفسها ضد النظرات التي لا ترحم، جرت إلى صباح.

تمتمت....

بت ملعب وبت كلب فاجرة ومجرمة.

يومهـــا قالت صباح، وأنا أمشـــي ليه من طريق الجبـــل؟! دا أنا حتى مـــا أعرفش الطريق دا منين!، ثم يا أخـــتي لا أبويا فلاح ومكري أروح له بالغـــداء، يبقى ليه أروح طريق الجبل!!، كانت بداية الخراب الذي حط عليها، أم سعدية ماتت متأثرة بالأمر، حتى حسن ابن الشيخ عبد المجيد، والذي كان يحبها وتحبه تنكر لها، كان هناك، جالسًـــا تحت الجميزة يصفر بنايه، والنغمات الحزينة تطلع إلى السماء، قالت له سعدية، إزيك يا سي حسن، قال: أهلاً يا سعدية، كان رده جافًا، كأنه ما أحبها، وكان ردها لطيفًا، كأنها ما أحبت غيره، نظرت إليه تســـتحلفه، مالك ياسي حســـن، دا أنا بحبك يومها اســـتنكرت ســـعدية قول هذه الكلمة، لكنها قالتها، لا تعرف كيف فلتت الحـــروف منها، لكنها فلتت، كانت تتوقع أن يقوم ويحتضنها، يدخـــل عظامها في عظامه من الفرحة، لكنه حطم كل ما فكرت فيه، قال إنت بت مُلعب وفاجرة.. هاستنى إيه من بت ماتت أمها بســـببها!!، وأبوها عمران المكري، كان يعني إيه؟! مكري عند خلق الله، قلت: أنا يا سي حســـن، قال: أيوه إنتِ يا سعدية، يومها اسود العالم في نظرها، يومها فقط جهزت أشـــياءها الخفيفة غالية الثمن، وركبت قدمها، ومشت إلى حيث لا تعرف.

9

لم يكن رمضان الذي أسند ظهره إلى الحائط الذي يحمل المنضدة الرخامية التي تلقى عليها الطلبات في بهجته وحالته، على وجهه مسحة حزن مما جرى هناك عند المعلم نبراوي من طه الساعي، كان قد مرَّ على طه بعد انتهاء ورديته أمس وذهبا إلى المعلم نبراوي، عرض رمضان على المعلم المساواة بينه وبين طه، استشاط الأخير غضبا ورفض هذا الاقتراح ووضح رفضه بأن رمضان لا يستطيع تسويق كميات كبيرة من المخدرات، ونصح المعلم نبراوي ألا يوافق حتى لا تضيع البضاعة أو تتلف، أيضًا رمضان لا يمتلك مكانًا يصلح لشحن مثل هذه الكميات، وبالرغم من أسبابه لكن المعلم نبراوي أومأ لرمضان برأسه دليل الموافقة، ومنحه كميات صغيرة يوزعها على أصحاب الكيف والسهرات والعزومات.

***

ذهب رمضان الذي أصبح يمتلك من خمسة قروش إلى خمسة عشر قرشًا يوميًا إلى المعلم نبراوي، طالبًا منه مساواته بطه وجعل حارة العطار والحواري المجاورة لها ملكًا له وهو المسؤول عن توزيع الكيف بها، لكن المعلم نبراوي رفض، لأن رمضان لا يمتلك - كما قال طه - مكانًا لتخزين البضاعة، فكر في تأجير حجرة في أي بيت، وإن اقتضى الأمر بيتًا من بابه، لأنه لا يستطيع ترك الحجرة في بيت العطار، حتى لا يكون مجال حديث أهل الحارة، وبالتالي عرضه للشك، وهو يبحر وسط أمواج التفكير ما بين هنا وهناك، جال برأسه المخزن، مكان لا يستطيع

أحد الوصول إليه لاعتقادهم أن أحد أبناء سليم العطار دخله وهو طفل صغـــير، وعندما دخلت أمه لتحضره لم تجـــده! وفي اليوم التالي ماتت!، لهذا وضع عليه باب وأحكم الغلق، إلا من شباك لا يستطيع أحد الاقتراب منه، وأصبح مصدر شـــؤم للجميع، وشـــاع بينهم أن هذا المخزن مسكون بعفاريـــت الليل، من يدخله إما أن تلتهمه!، أو تصيبه بالأمراض القاتلة!

عاد رمضان إلى المعلم نبراوي وأبلغه بشـــأن المخزن وأنه يســـع لشحن بضاعة المعلم نفســـه، وافق وطلب منه ألا يخـــبر طه بهذا الأمر،حتى لا تأكل الغيرة صدره!، ويحاول التخلص منه، وأرســـل المعلم في طلب طه ولمـــا جاء أبلغه أن حارة العطار والحواري المجاورة من نصيب المعلم تهتوه الضبش - رمضان ســـابقًا -، ثارت ثورة طه، كان غير مصدق ما يجري!، هل تساوى رأسه برأس رمضان؟! وتمتم بكلمات غير مفهومة، وخرج ثائرًا .

بدأ المعلم تهتوه الضبش في نشـــر بضاعتـــه على الموزعين، تدخل طه لدى الموزعين، كان ســـيدهم السابق، وطلب منهم عدم رد المعلوم للمعلم الضبش، وحين طلب رمضان المعلوم كل الموزعين رفضوا بحجج مختلفة، لكن العلة الأكبر هي اقتراب العيـــد وليس هناك فلوس، كذلك فقد وعدوا ببذل جهود مخلصة بجمع المعلوم من المستلمين، وفي ظل البحث عن المعلوم من الموزعين أو المستلمين جاء خطاب من الموزع الرئيسي يستعجل فيه المعلم نبراوي إرســـال باقي المعلوم لكي يرسل له البضاعة، وعلى هذا ضغط المعلم نبراوي على الضبش طالبًا منه الأموال، وبدأ المعلم الضبش إرسال تهديدات إلى الموزعين إن لم يرسلوا له المعلوم، لكنهم جميعًا رفضوا التهديدات وظلوا مستمســـكين بحججهم، بل إن بعضهم أقسم على ألا يرســـل إليه المعلوم حتى لو توافر له ذلك!، ذهب طه الســـاعي إلى المعلم نبراوي فوجد رمضان الضبش هناك، وبدأ طه في تأنيب المعلم نبراوي على اعتماده الضبش موزعًا كبـــيرًا! زاد المعلم نبراوي ضغطه على الضبش،

وأبلغـــه أن هذه المهنة لا تعرف أخطاء، إنما من يخطئ يعاقب، ولا يعاقب بقطـــع التعامل معه، لأنه قد يبلغ النقطة، أما العقاب فهو الإعدام رميًا بالرصاص، أو الموت بأي ســـبب آخر، وحذره في أنه إن لم يعجل في إرسال المعلوم ســـيكون عقابه الإعدام، واتفق الضبش مع المعلم نبراوي على مدة معينة لا تزيد على ثلاثة أيام؛ كفترة سماح في محاولة جمع المعلوم من الموزعين، ذهب الضبش للموزعين معتذرًا ومبديًا الندم، وعلى اســـتعداد كامل لأن يرتمي على الأرض مقبلاً القدم على أن يعطوه المعلوم، اعتذر الجميع بضيق اليد في الوقت الحالـــي، وعليه الانتظار إلى ما بعد العيد كما كان يفعل المعلم طه، ســـاق الضبش المعلم طه على الموزعين، وإن تطلب الأمر دفعه من حسابه الخاص، رفض المعلم طه بحجة أن الموزعين لا يملكون أموالاً في الوقت الحالي!

هكذا أسند رمضان ظهره إلى الحائط يفكر، كيف سيتغلب على هذا المبلغ؟! مع أن كل ثانية من الوقت المحدد محسوبة من عمره.

10

لم يكن هينًا على الحاجة سعدية أن ترتاح في نومها على إثر تذكرها ماضيها، لا زالت تتهم نفسها بقتل أمها ووضع رأس والدها في الطين، كذلك لم تكن حجرتها الكئيبة المظلمة التي لا شباك بها ولا لمبة تساعد على النور والسعادة، ولا أي شيء منها يعمل على ملء الفراغ الرهيب، رغم صغرها فهي مكونة من حصيرة أرضية بالية متآكلة الأطراف وعليها تقبع ورقة لمجلة عليها صورة امرأة تشبه الحاجة سعدية في شبابها بقوامها الملفوف تذكرها بماضيها وقلة يقبع تحتها حجر تقف عليه، وفي أحد أركانها سرير نحاسي وفي ركن آخر دولابها الذي لا يتعدى ارتفاعه مترًا مكون من ضلفة واحدة بطول الدولاب، ودائمًا ما تذكر أنه الشيء الوحيد الذي جاءها دون عناء وكلفة، كانت قد وجدته على سطح البيت، قبل مجيء الباقين، لذلك فهي تعودت ترك الحجرة وعدم الجلوس فيها لغير النوم. طوال الليل والحاجة سعدية تبكي!، لا أنيس ولا جليس، تمسك رأسها أحيانًا وتعود إلى الوراء، تتسلل دمعة على وجنتها، وتقول آه.. لو أمسكت بجمعة الجلخ!، آه.. لو أثبت لحسن أني ليس كما ظن!، كثيرًا ما كانت تفكر لو تغيرت الأوضاع قليلًا لوجدت نفسها الحاجة سعدية أمًا للحكيم والبكباشي، وزوجه لهذا الأب الفاضل، أسرة جيدة تفرح حين رؤيتهم، ولكن أين وهي التي دمرت نفسها بنفسها وأثبتت عليها كل التهم حين هربت؟!!

أذن الفجر، ومن عادتها أن تستيقظ لصلاة الفجر، لكنها لم تسمع، حتى صوت الشيخ» الفولي» الذي عشقته دون أن تراه، وكأنما لم ينفذ

إلى حجرتهـــا موقظًا إياها هذه المرة، لم تســـتيقظ إلا على وقع خطوات محمد أفندي معلنًا ذهابه للعمـــل، ومؤكدًا بذلك تمام الثامنة، طرق الصوت أذنها، لم تفتح عينيها، شـــعرت بمن اقتحم عليها الحجرة، كيف يســـتيقظ قبلها واحد من السكان؟!، آه.. ما هذا النور.

- محمد أفندي.. صباح الخير، الساعة كام؟

لم تلتقط أذن محمد أفندي سوى» صباح الخير» فرد عليها تحيتها، ولم تلتقط أذن الحاجة سعدية هي الأخرى سوى رطم كلام، لا تفهم معناه، التصاق الحـــروف مع بعضها والهواء الـــذي راح يضرب الأماكن، كل ذلك ســـاعد على تبديد صوته، نفضّت عن نفسها الغطاء وفي حركات بطيئة كانت أمام الســـرير، تناولت القلة قائلة: «يا فتّاح يا عليم، يا رزاق يا كريم على الصبح»، خرجت إلى الطرقة.

- يا جمالات.. قومي يا بنتي.

وأكملت في صوت لا يســـمعه ســـواها،» ولـــلا أقولك يا جمالات.. خليكِ نايمة.. تلاقي إنتِ وعزت امبارح ســـهرانين للصبح»، وفي خطوات متثاقلة دخلـــت إلى حجرتها وأصوات أنينها مع زقزقة شبشـــبها أحدثا سيمفونية موجعة، خلعت ثيابها البيضاء، وارتدت ثوبها الأسود الداكن، ونزلت وهي تحدث نفسها بليلة أمس بين عزت وجمالات وما دار فيها من مشاحنات وضحكات وصرخات وآهات.

استيقظت جمالات صارخة:

- قوم يا راجل الساعة داخلة على تسعة.

صرخـــة قوية انتفض على أثرها عزت وأولاده، وفي لحظات كان عزت قـــد غيرّ من هيئته وأصبح معدًا للخروج لإحضار الإفطار، وللانطلاق في رحلة البحث اليومي عن عمل.

تناولـــوا الإفطار، وخرج عزت، ونزلت جمـــالات للجلوس مع الحاجة سعدية قائلة:

- صباح الخير يا حاجة سعدية.

نظرت إليها الحاجة سعدية بتفرس وهي تبتسم بخبث:

- أهلاً ياست جمالات.

وأكملت بطريقة ماكرة:

- يعني ما سمعتيش الفجر، ولا الأستاذ محمد، ويظهر كده - والبيوت أسرار - إنك فضلت سهرانة طول الليل.

نظرت إليها جمالات وقد احمر وجهها حياء، من كلام العجوز، قائلة:

- لا والله يـــا حاجة دا أنا امبارح مســـحت الصالـــة والمطبخ والحمام وغســـلت هدوم وكنســـت أودتنا فتعبت فراحـــت علىّ نومة.

- إزاي يا بنتي تكوني من نصيب واحد زي عزت، إنتِ لازم تتجوزي راجل عليه القيمة .

قالت جمالات وقد بدا عليها شيء من الحزن:

- كل واحدة ونصيبها في الدنيا.

ردت الحاجة سعدية على عجل:

- ما هو نصيبك بيخبط كل أول شهر.

نظرت جمالات ضاحكة:

- لا.. لا.. يا حاجة سعدية، دا مهما كان في سن أبويا.

ردت الحاجة سعدية صارخة فيها وفي عقلها المجنون:

- هوا عزت دا عملك عمل، دا لا شغلة ولا مشغلة!

قالت جمالات:

يا حاجة سعدية، دا سلامة أفندي في سن أبويا .

قاربت الحاجة سعدية ما بين حاجبيها من الغيظ، قائلة:

- يا بت يا جمالات.. إنتِ عقلك دا خرابة، إيه يا بت هو ما فيش غير سلامة أفندي، اللي ما فيش في راسه شعرة سودة!، إنتِ حلوة وجميلة ومِيتّ مين يتمناكِ، لو معاكِ مِيتّ عيل مش أربعة!

نظرت جمالات باستغراب، وفي نفسها تلعن المرأة وتلعن خبثها غير أنهـــا راضية منها هذا الكلام الذي يضرب على أوتار قلبها مادحًا جمالها وأنوثتها، وأكملت الحاجة سعدية:

- واحد زي محمد أفندي إنتِ مثلاً أصغر منه بسنين بسيطة يعني هوا دا عمر الجواز المظبوط.

صمتت الحاجة سعدية برهة، وعادت تقول:

- اللا يا بت جمالات.. عزت دا أكبر منك بكام سنة؟

يبدو أن سيرة محمد أفندي لعبت برأس جمالات، فأجابت:

- بتاع تمنتاشر سنة !!

- إيه؟!، دا عزت متزوج على سبعه وتلاتين، يعني كان عندك....

وتوقفت عن الكلام، وأخذت تلوح بيدها في الهواء يمينًا ويسارًا، كانت تحاول أن تحسب الأرقام، فردت يدها وهي تثني أصابعها واحدًا بعد الآخر، وحين عجزت وجهت نظراتها تجاه جمالات:

- يبقى... يعني كان عندك... يخرب بيت أهلك، كنتِ لسه عيلة، عايزة واحد عنده خمسة وعشرين، مش خمسة وتلاتين!

قالت جمالات بشيء من الرضا:

هو اتقدم.....

وتنهدت تنهيدة طويلة، قائلة:

- كانت أيام حلوة يا حاجة سعدية، تقدم عزت.. أبويا وافق.. وفي يوم وليلة كنت زوجة لعزت!، ما أعرفش أبويا وافق عليه إزاي؟!.. صبرت وقلت أبو عيالي!

استطاعت الحاجة سعدية - تلك المرأة التي تحسن استغلال العواطف - سحب جمالات، وأوقعتها في شباك العاطفة، وسيطرت على عقلها تمامًا، وقالت:

دا كان زمان.. وإنتِ بنت مكسورة، لكن دلوقتي إنتِ وعزت في الهوا سوا!

وأكملت الحاجة سعدية التي تيقنت من انسياق جمالات خلف كلامها دون تفكير في مجريات الكلام .

يعني عزت دا كان ممكن يروح في الهوا، يبقى ضيعتي جمالك، ومحمد أفندي قدام عنيكي وشكله كده يتمنى يبوس التراب اللي بتمشي عليه.

كانت الحاجة سعدية تنطق الكلمات في هدوء تام، وتلمح رأس جمالات وهي تهتز يمينًا ويسارًا، متناغمًا مع الكلام، ولم يوقف اهتزازها سوى دخول محمد أفندي، قائلاً:

- السلام عليكم.

11

لم تكن نفس سـلامة عبد الحكيم ترتاح لدخول ذلك البيت، ولا لأن يبدأ يومه بوجوه سكانها إلا وجه جمالات فمنذ أخبره سليم باشا بالذهاب للبيت لجمع الإيجار ورائحة الطرقة النتنة ومنظرها الكئيب مسـيطرًا على خلايا عقله. مشي سلامة في الحارة لا يكلم أحدًا، يعلم جيدًا أنه لا يسكن هنا سوى الطبقة الكادحة واللصوص ليس فيها حسن سوى الشجرة الواقفـة أمام القهوة، دلف إلى مدخل العمـارة ورائحة الطرقة النتنة في أنفه تكاد تقضي عليه، أول ما قابل فيها ذلك الخروف، نظر إليه في ضيق قائلاً في نفسه) يلعن أبوك يا خروف، إياك في يوم آكل من لحمك أصل أنا عارفه لحم نتن!(، وأكمل سيره ناحية المرأة القابعة فى نهاية الطرقة:

- صباح الخير يا حاجة سعدية.

ثم قرب بين حاجبيه فى غيظ وحنق مكملًا:

- طبعًا هتقوللي يسعد صباحك يا خويا، هاخلي نهارك أسود، لأن أنا زي عيال عيالك، عمري ما أكون من جيل أخوكى أبدًا.

رسمت المرأة ابتسامة الرضا على وجهها، وفي بلاهة غير مقصودة، قالت:

- يسعد صباحك يا خويا .

هى لم تكن تقصد أن تضعه في بؤرة الجنون، بل قالتها سهوًا، دائمًا ما تجيبه هكذا، مع تلفظه بكل التهديدات التي تنطلق كسيل إذا قالت إنها أخته، نظر إليها سلامة قائلاً:

- أنا مـــش حذرتك يا بنت الكلب يا غبيـــة، جاكي خيا لما يقطع في قلبك .

وصعد سلامة السلم، وهو يلعن الشقة وسكانها وسليم العطار، واليوم الذي عمل فيه لديه، وكل من له صلة بالشـــقة من قريب أو بعيد، طرق على باب عزت، قائلاً:

- يا عزت.. يا عـــزت أفندي.. رد عليّ يا خويا، وللا أنا مش عاجبك، تعالَ قوللـــي يابا، رد.. ردت الميّة في زورك وزور أهلك، إن كان لك أهل، أنا عارف إنك ولد لقيط وابن حرام!

وترك حجرة عزت، وطرق بيده على حجرة رمضان، قائلاً:

- وإنتِ يا ســـي تهته.. قوم يخرب بيت أهلـــك، وللا هتقوم ليه ما أنا عـــارف إنك لا معاك إيجار ولا يحزنـــون، يلعن أبوك ابن كلب، إن كان إنت وللا سليم العطار، ليه مسكنك هنا وهو عارف إنك مش هتدفع إيجار؟! كان بدل مـــا يوجع قلبي معاك يخصمه منك من يومية القهوة.. وللا يعـــني دا كله عطف نزل على قلب أمه !

- يـــا صباح الورد على أجمـــل عيون في الدنيا، ياخـــتي أنا عارف الواد عزت دا وقع عليكي فين؟! دا إنتِ لو مخرج في الســـيما شـــافك حد الله ليأخـــذك تمثلي، يا لهوي يا بت يا جمـــالات، مش تتجوزيني يا جمالات؟!

أطلق سلامة عبد الحكيم هذا المقطع الهادئ، إثر رؤيته لعيون جمالات، التي فتحت الباب:

- صباح الخير يا عم سلامة .

رد سلامة في غيظ:

- جاكـــي عمى يا بت يا جمـــالات، عمك إيه يا بت، دا أنا لســـه ما تجوزتش، وبدور على عروســـة، وعادي خالص لما تكون أرملة، وعندها عيال واسمها جمالات، يقوم تقوللي يا عم سلامة. . . . إيه هى فوضى؟!

- والله يا عم ســـلامة عزت ما لاقي شغل، وأول ما يلاقي شغل طبيعي كون متأكد إن أنا بنفســـي هاجبلك الإيجار .

رد سلامة الذي أحسن استغلال الجملة:

- والله إنت بنفسك يا جمالات تشريفي في أي وقت سواء بالإيجار أو من غيره وعنواني مايتوهش.

ثم أكمل في غيظ وحنق:

- لكـــن من ناحية إنك تجيبي الإيجار بنفســـك، فإنـــت مين؟!، إنت كلك على بعضك ما تســـويش حاجة جنب الهوانم اللي بشوفهم عند ســـليم باشـــا، يعني إنت مش بديعة مصابني، وبعدين فين الواد عـــزت، هتقولي طلع يدور على شـــغل، ملعون أبو الشـــغل، أنا عايز الإيجار لأن كده ما ينفعشـــي !

وتركها لاعنًا أبوها وأبو أبوها وجدها الســـابع، كلهم ذرية نجســـة، أصلهم فرنســـيين جاءوا مع الحملة الفرنســـية، وتجوزوا من المصريين، وجمالات واحدة من آخر ســـلالتهم، طرق بيده علـــى باب رمضان طرقًا عنيفًا، قائلاً:

- هافضل واقف كتير يا سي رمضان؟

سمع صوت رمضان من داخل الحجرة قائلاً:

- د.. د.. دقيقة.. يا عم سلامة .

لم تلتقط أذن سلامة كلمة «يا عم سلامة»، وإلا لكانت سالت اللعنات على رمضان وأبو رمضان وأم رمضان، وكل من يمت بصلة لرمضان، لكنه قال:

- بسرعة أنا مش موظف عند أهلك، هفضل واقف على الباب لما سيادة أهلك تطلع !

فتح رمضان الباب:

- أ.. أهلاً وسهلاً.. با.. بالراجل الطيب، طيب تصدق بمين؟!، من كام يوم كانت الفلوس في إيدي زي الميه، لكن.. .. لكن.. لكن حصلت مشكلة أخدتها كلها، لكن بأوعدك أ.. أول ما يكون معايا فلووس، أنا بنفسي.....

رد سلامة في ضيق:

- لا إله إلا الله، بس إنت يا ابن الكلب مش سعد باشا زغلول، ولا مصطفى كامل علشان تقول إنت بنفسك.

قال رمضان:

- عـ.. عايز أسألك سؤال.

- إنت عارف أسئلة، عمومًا اسئل، يعني هيكون سؤالك إيه يعني؟، مين اللي اخترع الإيجار؟

نظر رمضان مبتسمًا، قائلاً:

- لأ.. لأ.. مـ.. ما أنا عارف مين اللي اخترع الإيجار.. سليم باشا العطار؟

رد سلامة بغيظ قائلاً:

- لأ.. يا غبي مش سـليم باشـا العطار، اللى اخترع الإيجار أبو سليم باشـا العطار، مش قلت إنت ما تعرفشـي أسـئلة، وأي سؤال إجابة عندي سهلة !

قال رمضان مستعجبًا:

- دا أنا عايز أسألك، مين علي مبارك؟

نظر إليه سلامة أفندي في حيرة من أمره قائلاً:

- بقى عايش في الدنيا ما تعرفشي مين علي مبارك، يخرب بيت أهلك، مش عارف مين علي مبارك، طب والله ما أنا معرفهلك يا ابن الكلب يا جاهل !

وأكمل سلامة عبد الحكيم:

- عمومًا الإيجار يا رمضان، علشان سليم باشا العطار بيهدد بالطرد.

لم تكن يد سـلامة عبد الحكيم وقعت على باب حجرة محمد أفندي، حتى فتح الباب قائلاً:

- أهلاً وسـهلاً يا راجل يا منور، والله وشك دا على الجنة، إيه يا راجل فينك؟، دا أنا من الفجر وأنا باستناك، عمّال من الباب للشباك، لأ.. لأ.. ساعتك النهارده مش مظبوطة، وثانية أدخل أحضر لسيادتك الإيجار، وللا أقولك تعال، إمبارح اشتريت زنجبيل يعجب سيادتك، تعال نشـرب وسـيبك من رمضان وعزت، هم ناس على قد حالهم، وربنا يعلم، حتى عزت من الصبح لبعد العشاء يدور على شغل، كان الله في عونه.

رد سلامة:

- هات يا محمد أفندي الإيجار لأني مستعجل.

دخل محمد أفندي يحضر الإيجار، وقال سلامة في نفسه:

- شـــوف ابن الكلب المنافق الخبيث، وللا قدر يشغلك يا جمالات، إيه عرفـــه إن عزت بيخرج كل يوم الصبح يدور على شـــغل ويرجع بعد العشـــاء، إلا إنه معاها طول الفترة دي، طب والله أنا كنت حاسس بكده.

- الإيجار يا سلامة أفندي.

قالها محمـــد أفندي وهو يمد يده بالإيجار، وعلى شـــفتيه ترتســـم ابتسامة صفراء.

12

جذب سـلامة عبد الحكيم الإيجار من يد محمد أفندي، وغادر الشقة وهو يلعن برأسه حارة العطار جميعًا، وسليم العطار نفسه، فهو السبب في معرفته بأهل الحارة الملعونة، قفز درجات السلم مسرعًا، ألقى نظرة على الحاجة سـعدية مبتسمًا بسخرية، وسار في الطرقة إلى أن وصل الخروف قائلاً:

- الحاجة سعدية تسمن فيك علشان على العيد هتبيعك، وبالمناسبة بقى يا سـي خروف، أنا باحذرك، إنـك تنباع لحد هنا، عارف ليه؟، لأن لو اشـتراك جزار، احتمال اشـتري من لحمك في العيد، يبقى لحمتك النتنة من رائحة الردهة هاحس بيها، وقتها هرميها للكلاب، والحاجة سـعدية هرميها للكلاب، علشان لحم الكلاب ينتن، فاهم يا كلب يا ابن الكلب .

ثم حرك منشته يمينًا ويسارًا بقوة كأنه يفرق الروائح . .دلف سلامة أفندي يمينًا، ألقى نظرة طويلة على الشـجرة، فهي الشاهدة على كل لحظات أهل الحارة الملعونة، قائلاً في نفسه:

- الشجرة دي لو بتتكلم تقدر تفضح كل أهل الحارة.

بالفعل كانت الشـجرة شـاهدة على كل تطورات الحارة وعلاقات أهلها ومـا يحدث في الخفاء.

دخل القهوة قائلاً:

- واحد شاي وشيشة يا ابني .

جاء سعيد بالطلبات ووضعها أمام سلامة أفندي، جذب نفسًا عميقًا، أخرجه على مراحل، مرة من فمه، ومرة من أنفه، وأخرى منهما معًا، لفت نظره الرجل الجالس على المكتب في ركن القهوة، وفوق رأسه تستقر صورة معلقة لرجل يرتدي عمامة كعمامة محمد علي باشا، يبدو أنه جد سليم باشا العطار، على كل فهو رجل قابع على كرسي يتدلى كرشه على المكتب وأمامه كوب شاي، لا يتحدث إلا نادرًا، كل ما يجري بالقهوة ليس من شأنه!، غرق سلامة في التفكير، من يكون هذا الشخص؟، لم يجد إجابة محددة .

- يسعد صباحك يا محمد أفندي.

نظر، فإذا سعيد النادل يرد تحية محمد أفندي.

- رمضان.. يا رمضان تعال استلم الساعة تسعة، أنا مروح!

نزل رمضان بعينين حمراوين واسعتين، قائلاً:

- يعـ.. يعـ.. يعني يا سعيد ما فيش يوم تتأخر عن تسعة دقيقة؟!

رد سعيد مبتسمًا:

- يا سي رمضان مرة تانية، أنا عارف إن سلامة أفندي بتاع الإيجار حضر، يعني إنت صحيت بدري، لكن في يوم تاني لما تكون سهران بالليل هتأخر علشان خاطرك.

أسند رمضان ظهره إلى المنضدة الرخامية .

قال سلامة أفندي:

- عامل مش واخد بالك يا سي المزجنتي.

انتبه رمضان لمصدر الصوت قائلاً:

- يـــا.. يا.. يا مرحـــب بالراجل الطيب.. ســـلامة أفندي..، يعـــ.. يعـــ.. يعني يا راجل اللى تستلموا من محمد أفندي كل شهر، تجي تصرفه على القهوة !

- أنـــا.. أنا يا ابن الكلب يا واطي، دا أنا المرتب اللى باخده من ســـليم العطار يصرف على حارتك!، والحمد لله لا بشرب مخدرات ولا بتاع كيف زيك يا مسطول !

انتبه الرجل المحشور كرشه بين الكرسي والمكتب، عندما سمع «سليم العطار»، ووجد سلامة أن وجه الرجل تغير وعقدت جبهته ولاحظ شفتين تتمتمان كأنه يلعن سليم العطار .

رد رمضان:

- إ.. إ.. إنت شايف رمضان اللي قدامك دا .

مشيرًا إلى جسده بكلتا يديه.

- مسيره في يوم من الأيام يبقى صاحب قهوة العطار دي، والحارة كلها بتاعته، ووقتها ما تخفش يا سلامة، هاشغلك عندي محصل إيجار، بس اسمع، عارف لو سمعتك بتقـــول «يا ابن الكلب»، هأخصم من إيجارك، لأ.. لأ.. أنا نســـيت إنك مستوظف، هاخصم من مرتبك، فاهم يا ابن الكلب يا واطي!

نظر إليه ســـلامة أفندي، وعلى شفتيه تســـكن ابتسامة وعلى جبهته علامات تعجب،

ثم نظر إلى سلامة أفندي الذي تابع كأنه ما قطع كلامهم شيء.

- وقتها يا ابن الكلب هاكون مُت، وخدها مني نصيحة، ماتتكلمش مع الموظفين عندك، لأنك ما تعرفشـــي إن الموظف له قيمة عنك، مش مستوظف!

وضحك سلامة عبد الحكيم بهيستريا وهو ينهي كلامه الذي أفحم به رمضان .

نظر إليه رمضان بافتراس، بعدما أضحك ســـلامة أفندي عليه رواد القهوة، قائـــلاً، ومحاولاً جمع كرامته التي أهدرت:

- ط.. طـــب.. طب والله العظيم ما إنت شـــغال عندي، ولأكلم كل الأعيان ما واحد فيهم يشـــغلك عنده .

نظر إليه سلامة متقمصًا شخصية سليم باشا العطار، قائلاً:

- إنت يا كلب عايز تعض أيادي أسيادك، دى آخر البقايا اللى بنرميها إليـــك، يا عثمان، يا علي، يا جاد، تعالوا خـــدوا الكلب دا ارموه بره للـــكلاب، لأ.. لأ.. ماترمهوش للـــكلاب لتأكله وتصاب بالأمراض اللى عنده، الفلاح ابن الفلاح دا!

وقعت الجملة على أذن رواد القهوة كأنها صاعقة، أصيبوا على أثرها بحالة من هســـتيريا الضحك، لم تزد الجملة على الرجل المحشـــور بين الكرســـي والمكتب إلا حنقًا على حنق وغضبًا على غضب، ولوحظ أيضًا شفتاه وهي تتحرك كأنه يلعن سليم باشا العطار، أما رمضان، فقد وقف مزمجرًا صارخًا، وهو أيضًا يتقمص شخصية سليم باشا العطار، وممسكًا بعصا كانت في يد أحد الزبائن، رفعها في وجه سلامة عبد الحكيم قائلاً:

- إ.. إ.. إنـــت يا كلب إنت، اخرج بره الســـرايا، يا عثمان، يا علي، يا جاد، تعالوا ارموا الكلب دا اللي بيلم الملاليم من العمارات بتعتي بره، الصعلوك ابن الصعلوك !

ضحكت القهـــوة، وكانت أيضًا هي المـــرة الأولى التي يضحك فيها الرجل المحشـــور بين الكرسي والمكتب، خرج سلامة عبد الحكيم غاضبًا .

- واحد شاي يا سي رمضان .

هكذا أطلقهـــا عزت دون أن يرى رمضان، وسمـــع على إثرها رمضان يقول:

- أ.. أ.. أمرك يا سي عزت.

دون أن يرى عزت.

13

لم تكن عبارة محمد أفندي»السلام عليكم»، قاطعة الحوار، فكم كانت جمـــالات تتمنى ذلك، لتخلوا بنفســـها تعيد عليها شـــريط الأحداث، وعبارات الثناء والمدح من الحاجة سعدية فيها وفي جمالها، ماذا يحدث؟! يا لها من مصيبة!، هل نست الحاجة سعدية أنها متزوجة؟! وماذا تريد؟!، ومـــا مصلحتها في زواجها من رجل غير عـــزت؟! وكيف يصبح عزت في عشية أو ضحاها لا وجود له؟!، بمعنى أن تكون جمالات أرملة!، ومن يلقي بيـــده في النار في مقابل امرأة فقيرة أرملة لديها أبناء كجمالات؟! حتى ولو كانت ملكة من ملوك الجمال.

أسئلة وغيرها لاحت برأس جمالات، وعيناها العسليتان معلقتان على درجات الســـلم، وأنفها المدبب يشـــم عبق المتعة، هكذا أطلقتها جمالات متنهدة:

- تقعدي بالعافية يا حاجة سعدية.
- فكري في الكلام يا جمالات.

نظرت إليها جمالات بخبث قائلة:

- ولا كلام ولا تفكير.. أنا متجوزة يا حاجة .

ولم تدع جمالات الفرصة للحاجة ســـعدية، إذ أطلقت الكلمة وكانت قد بدأت في الصعود، تفكر في الكلام، حتى إنها لم تســـمع شـــيئًا ســـوى غمغمة من الحاجة سعدية.

دخلت جمالات الحجرة، وأغلقت الباب خلفها، وأســـندت ظهرها إليه، وجذبت هواء ملأ رئتيها، ثم أخرجته على مراحل، وهي في غاية النشـــوة والسعادة، كم كانت تتمنى أن تشـــعر بجمالها الذي سلبه عزت منها، دون أن تدري ولا ترى ولا تعلن رفضها!، ما هى إلا لحظات حتى أصبحت سجينة عزت وحجرته!، ثم أمسكت بالبطانية وغطت أولادها تمامًا، ووقف وراحت تنزع ملابســـها قطعة قطعة، حتى أصبحـــت عارية تمامًا، وقفت تنظـــر إلى ثدييها، وتعريجة بطنها، وتملس على جســـمها وهي ترتعش، كنت تمر على جسدها وشـــفتاها ترتعش، ثم أعادت لبسها مرة أخرى، وأخذت تعصر ثدييها بقوة، كيف دخل محمد أفندي بقوته الجذابة على عقلها، كيف سمحت لنفســـها أن تطلق لخيالها العنان، تبحث وتفتش عن محمد أفندي وشـــخصيته، وتســـبح فوق أمواجـــه ونظراته الهادئة الحالمة، وبسماتة الأخاذة الســـاحرة، وهي تضغط على شفتيها وتضغط، محمد أفندي، لا.. لا.. وأبناؤها من لهم؟، نظرت إلى قفطان عزت الملقى على الســـرير كأنها هو، ركلته بقدمهـــا!، كان يعاملها بطريقة غير لائقة، لا يعرف قيمة هذا الجسد، لا يرويه، كان مجرد عودًا فارع الطول، محني الظهر، وقفص صدري طالما أتعب جسدها!، وأصابع كأنها إبر، أما محمد أفندي فهو شـــئ آخر، ببذلته الزرقاء أو البيضاء أفندي، لا.. لا.. بل باشـــا، لو لم تكن تعرفه لحسبته إبن سليم باشا العطار، أو هو.

ثم أخذت تتخيل أنها بين يدي محمد أفندي، يعصرها من تحته، وهي تمنحه قبلاتها، هذا الحلم الجميل الذي يعيد إليها جمالها، ثوان وهزت رأسها، نظرت إلى سريرها، ثبتت عينيها على الفراش، وكأن محمد أفندي ملقى على ظهره، يبتسم، يداعبها بحنان، ينادي بلطف «جمالات.. تعالى يا حياتي»، راحت إلى السرير، ومالت على القفطان، لكنها تراجعت، كيف لها تفكر في هذا الأمر؟!، أين عزت؟! رجلي!، أغلقت عينيها، لم يأت محمد أفندي في صورته الســـابقة، بل جاء رجل آخـــر، فرأته كأنه يطرق على

بـــاب الحجرة، ويدفعه بلطف، ثم يدخل عليها ببدلته الزرقاء، وشـــفتيه الجاذبتين لنفس عميق من ســـيجارة فخمـــة، وعينيه اللامعتين بصفاء ونقـــاء، وهي بلا زوج أو أبناء، هي كما هي جمالات البكر، ثم يدنو منها، ويحدثهـــا طالبًا منها رأيها في الزواج، وتجيـــب، وهي لا تدري عن الكلام الجميل شيئًا، أو هي تلك الفتاة التي لم تتعلم، ولم تذهب لكُتاب، وتقول بعد ما تنهدت:

- الزواج.. آه .

وتنطلق وهي تصور الزواج في أسمى آياته.

- الزواج.. هو اتفاق بين رجل وامرأة على المحبة.

وتصمـــت كأنها انتهت مـــن التعريف، ثم تقرب مـــا بين حاجبيها وتتذكر كلامه.

- ليس اختيار الرجل للمرأة لشـــكلها، كاصفرار لون الشعر، أو بياض البشـــرة، كذلك لا تقتنع المرأة بذلك الرجـــل، صاحب النظرات الســـاهمة، أو كونه يرتدي بذلة بعينها جذابة، بل الزواج، هو اتفاق في كل شـــيء، هو ارتياح نفسي بين رجل وامرأة.

لم تكـــن تفهم الكثير من كلامه، لكنها تحبـــه، هو يقصد أن الزواج جميـــل، ليس مجـــرد نوم رجل مع امـــرأة، هو دم علـــى دم، وتلاحم قلب وعاطفة.

14

- ماما.. يا ماما.. الحقي أخويا عماد .

نظرت جمالات إلى صغيرها كمن تطلب منه أن يعيد على مسامعها ما قاله، إلا أن صغيرها لم يستجب للإشارة، فنفضت رأسها كمن تبحث في الهواء عن بقايا كلمات تستطع ترتيبها وتصل جملة، إلا أن الهواء هو الآخر أبى ذلك.

تركها ابنها وخرج فلحقت به، فقادها إلى أمام باب الشقة، كان يبكي، ضاغطًا بكلتا يديه على رأسه، فحملته إلى داخل الحجرة، وبدأت في فحص حالته التي هدتها إلى أنها حمى، فبدأت في عمل كمادات مياه باردة، فلم يستجب لها الطفل، ولم يكن أمام جمالات سوى الحاجة سعدية تستشيرها ماذا تفعل، وفي لحظات كانت أمام الحاجة سعدية، قائلة:

- الحقيني يا حاجة....

وسقطت دمعة، وانهمرت دمعة تبعها سيل من الدموع، فزعت الحاجة سعدية التي قالت:

- إيه.. جرى إيه؟

- الواد يا حاجة سعدية.

- شوية كمادات مياه باردة يرجع زي الحصان.

- عملت يا حاجة عملت، ولا منزلة من الحرارة حاجة.

- طيب.. طيب.. هاطلع معاكي أرقيـــة، ونرمي حصوة ملح في عين اللي ما يصلي على النبي المختار، وفي عين كل حاســـد غدار.

وبسرعة، كانت الحاجة سعدية قد صعدت إلى الشقة حتى تقوم بدور الحكيم، وفي لهفة كانت جمالات قد أحضرت المياه الباردة، والملح والورق اللازم، وقطع القماش، وبدأت الحاجة ســـعدية تعاونها جمالات في عمل اللازم.

أشعلت الحاجة ســـعدية «الوابور الساكت «وأمسكت بورقة لفت فيها ملح، وبدأت تثقبها بإبـــرة، وهي تلفظ بكلمات غير مفهومة، فجأة ألقت الورقة على الوابور وقالت:

- «العـــين دي كانت فيكي يا جمالات، لكن ربنا ســـلم وجات في الواد ابنك، احمدي ربنا».

نظرت إليها جمالات التي حاولت سرقة أنظارها من ابنها المريض، ثم قالت:

- الحمد لله، لكن مين صاحبة العين دي يا حاجة؟

- دي واحدة حويطة، عاملة احتياطاتها مانقدر نكشفها .

جلســـتا في صمت، وجمالات معلقة أنظارها على ابنها المريض الذي راح في النوم، ظلتا هكذا إلى أن قالت الحاجة ســـعدية:

- سبيه.. وهو لما يقوم من النوم هيبقى تمام .

قالت جمالات بنبرات حزينة:

- لأ.. تقـــدري تنزلي إنتِ يا حاجة، وأنا هافضل جنب الواد شـــوية لما اطمن عليه.

جلســـت جمالات في حيرة من أمرها، تترقب ماذا يجري لابنها، وتفكر بألف عقل فوق عقلها، فهي لم تقنع يومًا بعلاج المريض بعيدًا عن الحكيم، ولكن من أين تأتي بتكاليف الحكيم؟!

- كله يهون في ســـبيل راحة الواد، حتى لو لزم الأمر أنزل أشـــحت في الشوارع.

وسقطت دموعها وهي تقول:

- يا ترى إنت فين يا عزت؟!

بدأ الواد يتقلب يمينًا وشمالاً ويتأوه، أصيبت جمالات بالخوف، وضعت يدهـــا على جبهته، لم تنـــزل الحرارة، لم تهدئ الكمادات من ســـخونته، تضخمت فكرة الذهاب إلى الحكيم بعقلها، قفزت على الســـلم بســـرعة شـــديدة، وفي لحظات كانت أمام الحاجة سعدية قائلة:

- عايزة فلوس.

وأخـــذت «هواء نتن» من رائحـــة الطرقة ملأت بـــه رئتيها، وأخرجته مسرعة.

- يا حاجة سعدية :

- إيه؟

- الواد جسمه سخن نار، هروح للحكيم.

قالت الحاجة سعدية بعد ما قاربت ما بين حاجبيها:

- طيب تعالي نطلع نشوفه ونحدد، إذا كان يحتاج إنه يروح وللا لأ.
- لأ يا حاجة سعدية!
- والله يا بنتي أنا لو معايا ماتأخرش عنك !
- يا ترى إنت فين يا عزت؟!

قالتها جمالات إثر انتهاء الحاجة سعدية من جملتها .

- أقولك يا جمالات، عليكي وعلى محمد أفندي، سلفة لما عزت يرجع، والراجل مش هيتأخر.

15

ترددت جمـــالات كثيرًا قبل أن تعلن قرارهـــا الأخير من موقفها في طلب ســـلفة من محمد أفندي، ســـيطرت فكرة الرفض قطعًا على عقل جمالات، هكذا وبكل وضوح حســـبتها جمـــالات فأعلنت رفضها القاطع، رفعت رأســـها كمن تريد الكلام، أو كمن انفجرت عقدة لســـانها، وفي نظرات غريبة للحاجة سعدية قالت بوضوح لن أطلب من محمد أفندي، فحدجتها سعدية بنظرات كلها خبث أنثوي عجوز، هو رجل مقتدر وقد حباه الله الوظيفة والمال وحـــب الخير، وإنت أولى الناس ببذل الخير له.

وكأن جمالات تجيب في خـــوف كمن تحاول الحفاظ على ما تبقى لها. أنا لا أعرفه ولم تمتد علاقتنا حتى طلب سلفة من المال، وليس لدي غير رمضان حتى أستدين منه. ثم قالت بصوت مسموع:

- رمضان!!

قالتها سعدية باستهزاء ممزوج بشفقة ثم أردفت:

- من أين لرمضان؟، ونحن من يقدم له الطعام.

لم تدعها جمالات تكمل حديثها وقاطعتها:

- إلا أننى لو طلبت منه ما تأخر للحظة.

لم تزل سعدية تنصب شباكها بكل حرافية.

- وإنتي شـــايفة إن محمد أفندي هيتأخر عليكـــي في الفلوس، أو حتى هيطالبك بيها بعد كده، أنا معرفش غير إنه راجل وهيديكي أكتر مـــا تقولي لأنه بيعـــزك، ورمضان مش لاقي عشـــان يدي ، هو مش لاقي لنفسه هيديكي إنتي إزاي؟.. عارفة إن إحنا مكلناش معاه عيش وملح، بس الراجل والشهادة لله مجدع.

فقالت جمالات في نفســـها، شـــكله فخ وأنا هوقع فيه، وأكملت وهي تحدق في سعدية.

- وكيف الطلب وهي أول مرة؟، قولي.

انفرجت أسارير الحاجة سعدية عن ابتسامة خبيثة وأكملت:

- إنتي بس شاوري وهو هيجيبلك لبن النوق الحمر.

كمن أفاق من كابوس، ابنها أمامها يتقلب ولا تعرف كيف تتصرف، نظرت لسعدية ولأعلى:

- طيب أنا رايحاله.

رفعت جمـــالات يدها على الباب، وقبل أن تنـــزل عليه طارقة، ترددت بعض الشـــيء، ثم قبضتها وبســـطتها، وشعرت بنفســـها تصرخ معلنة الرفض، لكنها وبعد إجهاد شـــديد، طرقت البـــاب طرقة واحدة، وكأنه ينتظرها، جاء صوته، من بالباب؟، أجابت وهي تخشى الكلام، وبصوت لا يسمعه ســـواها بعد ما ابتلعت حنجرتها في باقي الحروف، أنا جم.. ت، ظنت أن صوتها لا يســـمعه سواها، فتح الباب فإذا هي شاخصة العينين، شـــاردة، وعلى خديها دمع يســـيل وقالت «ابني.. .»لم ينتظر حتى تكمل، ففي ثوانٍ كان قد قفز إلى حجرتها يشخص حالة الطفل، خرج وارتدى بذلته الزرقاء حمل الطفل وهرول به على السلم ذاهبًا به للحكيم، لحقيه، وعندما وصلا كان قد انتهى من العلاج ومحاسبة الحكيم، وسريعًا كان قد أحضـــر الدواء وحمل الطفل عائدًا للمنزل.

16

- شكرًا يا محمد أفندي، وبإذن الله الفلوس تكون عندك الصبح قبل ما تمشي على الشغل .

- عيب يا ريـــس عزت، فلوس إيه اللي بتتكلم فيهـــا يا راجل، الجيران لبعضيها يا ريـــس، وأنت أبو الأصول .

وأكمل، حتى يجعل الحديث في صالحه:

- والله علشان كده ما أنا واخد فلوس .

- لأ.. لأ.. إزاي دا حقك.

- اعتبرني اشتريت حاجة للعيال .

- دي تبقى هدية غالية قوي.

- هم مش زي عيالي.

- آه.. آه.. أكيد طبعًا .

- خلاص يبقى والله ما أنا واخد فلوس.

- ماشي يا محمد أفندي، ألف شكر.

وخرج عزت وهو لا يعرف كيف يكافئ هذا الرجل على جميل صنعه .

- عملت إيه يا عزت مع محمد أفندي؟

هكذا اســـتقبلت جمالات عزت عندما دفع الباب بهـــدوء، نظر إليها بابتســـامة هادئة، عرفت منها أن محمد أفنـــدي أدخله هو الآخر الخية، وقالت في نفســـها يا رب استرها، أجاب عزت:

- والله يـــا جمالات الراجل طلـــع غاية في الذوق والأدب، يا ســـلام يا جدعـــان على الجيران لما تقدر بعضيها بتكون حاجة تشـــرح الصدر، وتخلي الواحد شـــايف الحياة حلوة وهو عارف إن ليه ضهر، يعني لو وقع وللا حاجة هيلاقي ألف مين يســـنده.

ثم دار حول جمالات دورة كاملة، وقال:

- صحيح.. الجار قبل الدار.

- لأ يا عزت، كان لازم ياخد فلوسه .

- والله يا جمالات اتحايلت عليه كتير والراجل راسه وألف سيف، إن العيال دي زي عياله... وما أن سمعت جمالات جملة «إن العيال دي زي عياله»، إلا وأصابها الخوف ودخلت في حوار مع نفسها، العيال عياله، وغدًا من أكون؟، ومن عزت؟، أوقعتنا اللعوب سعدية في الفخ، أدخلتني وعزت في نفس الشرك، الأمر خطير.. وهنا سألها عزت بعد ما أنهى حديثه:

- إيه رأيك بقى يا ستي؟

تنبهت جمالات للسؤال، قائلة:

- إيه..؟

دفعها عزت قائلاً:

- يعني هاقول تاني، على العموم بقول لك نعزم الراجل على الشاي؟

- لأ.. لأ..

هكذا أجابت جمالات بشيء من الخوف، مرتبكة، قد يشك فيها عزت، الذي قال:

- ليه.. في حاجة وللا إيه؟

- لأ.. لأ.. حاجة إيه !

- طيب الراجل عمل معانا معروف، نرده له؟

- مش القصد يا عزت.

- أمال إيه القصد يا جمالات .

- الموضوع يا سيدي.

وجذبت عزت من يده ناحية السرير، وأكملت:

- الموضوع بقى يا سيدي...

لم يدعها عزت تُكمل، فقد انتهى من مصمصة شفتيه، قائلاً:

- يعني أنا ما بفهمش... خلاص فهمت.

- لأ.. لأ.. يا عزت مش زي ما أنت فاهم !

قال وهو يلقي آخر نظرة عليها قبل أن يطفي النور:

- مش مهم يا جمالات، اعتبريني ما بفهمش !!

ومال عليها يمسك صدرها وينهمر على شفتيها بالقبلات، لم تكن مهتمة بما يفعل، حتى إنها كادت تدفعه من عليها، لكنها صمتت، وراحت تنهيدات تخرج منها.

***

لم يكـــن حذاء محمد أفندي ضرب أرضية الصالة معلنًا ذهابه للعمل، ومؤكدًا بذلك تمام الثامنة، حتى صرخت جمالات قائلة:

- عزت.. عزت.. قوم يا راجل.

لم تلق تلك الكلمات أي صدى لدى عزت، فقد كان غارقًا إلى رأســـه مع جمالات في ســـعادة عارمة صرخت وهي تجذب نفسها في ضيق وزجر:

- وسع خليني أشوف الواد .

وضع عزت الوسادة على رأسه، مما زاد في ضيقها فصرخت:

- يا عزت.. قوم شوف فطار واطمن على الواد؟

قام عزت وهو في غاية الكســـل، فقد أنهك قواه ليلة أمس في معارك مصيرية.

- حاضر.. يا قمر.

جلست جمالات بجوار ابنها المريض، وقلبها يدعو له بالشفاء العاجل، وألا تزيـــد المصروفات العلاجية عـــن هذا الحد، وبينمـــا هي منهكة في تفكيرهـــا، وكيفية الحصول على أموال لإعطائها لمحمد أفندي حتى لا تكون جميلة يدخل من خلالها لتفكيك أســـرتها وضياع زوجها وتشـــرد أبنائها، دخل عزت قائلاً:

- الفطار يا ست الكل .

هكذا وبســـرعة كانت اللقيمات قد أوشـــكت على النفاد، وكذلك الطبـــق قد عكس على صفحتـــه وجوههم الكئيبة .

- صباح الخير يا حاجة سعدية .

- يسعد صباحك يا جمالات .

وأكملت بعد ما حدقت فيها:

- ابنك عامل إيه النهارده؟

- الحمد لله.. الحرارة نزلت وبدأ يتماثل.

- الحمد لله.. عزت نزل عليّ من نصف ساعة، وسألته عن الواد، لكن إنت عارفة بينزل زي الملهوف، بياخد الطرقة جري، علشان كده يظهر مش سامعني.

أجابت جمالات بعد ما قربت من حاجبيها، وأصاب الحزن نبرات صوتها، قائلة:

- والله يا حاجة سعدية الله يكون في عونه، بيدور ليل نهار على شغل، لكن ما أعرفش الدنيا ملطشة معاه كده ليه؟!

- ربنا يسهل. والموضوع كله بإيد ربنا.

- ونعم بالله يا حاجة.

وبخبث قالت الحاجة سعدية:

- شوفتي محمد أفندي وقف معاكِ إزاي في مرض ابنك؟

- يشكر والله.

- وعزت راح عرض عليه الفلوس، لكنه رفض، وقال» العيال زي عياله».

ارتسمت على وجه جمالات علامات التعجب!، وأحست أن الحاجة سعدية ومحمد أفندي، قد اتفقا على الإيقاع بها بشكل ما.

- زي ما يكون كنت قاعدة معاه يا حاجة !

- طبعًا يا جمالات ما هو لازم يقول كده !

وأكملت في خبث:

- والله يا جمالات الراجل فلوسه كتيرة وبيدور على بنت الحلال، لكن هو قال كام مرة إن نفسه في واحدة في جمالك.

قالت جمالات كمن كان الكلام على هواها:

- ليه هو أنا جميلة؟!
- طبعًا يا جمالات.. إنتِ في عيون الراجل جميلة !
- طيب أنا ليه؟!.. هو عايزني أنا؟!
- ليه لأ؟!دا يتمنى التراب اللي بتمشي عليه!
- هو ناسي إن أنا متجوزة يا حاجة ؟!
- يخرب عقلك يا جمالات!، هو إنتِ معتبرة نفسك متجوزة؟!
- ليه؟!أمال عزت دا إيه؟!والمثل بيقول «ضل راجل ولا ضل حيطة».
- صحيح يا جمالات لكن «ضل حيطة ولا خيال مآتة».
- يعني إيه يا حاجة؟!
- يا بت محمد أفندي شاريكي!
- يبقى راجل ندل يا حاجة!
- ليه يا جمالات؟
- أنا متجوزة يا حاجة ســـ..

لم تكمل جمالات كلامها فقد قطعها محمد أفندي قائلاً:

- سلام عليكم .

وقبل أن تجيبا، أكمل قائلاً، متجهًا بالحديث لجمالات:

- طمنينى يا ست جمالات؟

- الحمد لله تمام.. أأقوم اطمن عليه.

***

- قربت آخد الحلاوة يا محمد أفندي.

قالتها الحاجة سعدية التي كانت تنظر ناحية جمالات وهي تصعد درجات السلم، بينما كان محمد أفندي يمصمص شفتيه، وهو يلتهم أرداف جمالات التي تترنح أثناء صعودها، ودار في خياله لحظات السعادة وهو يتخيلها كما هي أجمل امرأة عرفتها الأرض، فيبتسم قلبه من فرط السعادة، وبينما هو كذلك في دنيا الخيالات، إذ بالحاجة سعدية تسحبه إلى دنيا الواقع قائلة:

- هي يوم ولا يومين هتكون حتة الحلاوة دي بتعتك.

بدت علامات الحزن واضحة على وجه محمد أفندي، وهو يقول:

- يا حاجة سعدية أنا باكره الوقت المفتوح، حددي وقت.

- إنت بتطلب مني أنا أحدد وقت، دي شطارتك.

- يعني إيه؟!

قالت في خبث:

- يعني أنا دوري انتهى.. جمالات دلوقتي عندها فكرة إنك عايزها.. قرب شوية.

رد في اهتمام شديد:

- وأقرب إزاي يا حاجة؟!

أجابت كانها امرأة متخصصة:

- يعني ما تعرفش!!

نظر محمد أفندي صوبها.

- وإنت خلصت الكلام في تعب ابنهـــا، يعني كل الموضوع معاد ومكان، وتبقى الحلاوة ملكك، وهات فلوس عشـــان أنا تعبت !

منحها النقود، ورسم ابتسامة المنتصر على شفتيه، وأخذ باطنه يلعن سعدية، نظر إليها متظاهرًا بالتفكير ثم قال:

- طيب ما تشوفي موضوع الميعاد والمكان.

أجابت في شقاوة شبابية، ممزوجة بثقل حركة عجوزية:

- يظهر إنك خايب جدًا .

- ليه؟

- الميعاد والمكان.. حسب وقتك وذوقك !

- يعني إيه يا حاجة؟

- يعني دا مش اختصاصي، ودا موضوعك إنت وجمالات .

لم يجبها محمد أفندي، ولم يستأذن في الانصراف، بل قام كمن يحدث نفسه، ويؤكد لها عزمه على تنفيذ ما استقر بعقله.

17

- واحد شاي وحجر شيشة .

هكذا صرخ بها أحد رواد القهوة، إلا أنها لم تحرك في رمضان ساكنًا، كان غارقًا في أفكاره، فها هو اليوم الثالث والأخير في المهلة التي أخذها رمضان على نفسه مع المعلم نبراوي في سداد المعلوم.

- يعني هتحايل عليك يا سي تهته.

وما كاد الناطق ينتهي من كلمة «تهته»، حتى قام رمضان شارد العقل، ينظر فيمن حوله، راجيًا ألا يكون بينهم شخص غريب، فمن المؤكد أن يكون هذا الشخص هو رسول المعلم نبراوي جاء مذكرًا أن اليوم آخر يوم في المهلة.

انتفض رمضان قائلاً:

- لحظات ويكون الطلب حضر يا ريس.

وبسرعة وبطريقة بهلوانية جذب رمضان الطلب من على المنضدة الرخامية، انحنى به أمام الخِوان، أنزل الشاي ووضع الشيشة، وغير مبسمها بعد ما جذب من المبسَم السابق نفسًا عميقًا، أخرجه وهو يقول:

- أجدع حجر شيشة.

رجع رمضان ساندًا ظهره إلى المنضدة الرخامية، وقد عاد إليه بعض الاطمئنان بعد ما تأكد أن الذي قال كلمة «تهته» هو أحد أبناء الحارة،

كســـت وجهه مســـحة حزن، عندما أكد لنفســـه أنه لا مفر من دفع الفلوس، فهي إن آجلاً أم عاجلاً ستدفع، وأن التجار لا يملكون أكثر من ذلك خصوصًا عندما طلبوا منه تحديد المهلة التي يبدأ عليها الحساب، قـــام يفكر مَنْ مِنْ أهل الحارة معه مبلغ كهذا؟!، ثم مَنْ منهم ســـيعيره مثل هذا المبلغ؟!، تلاطمت بذهنه الكثير من الأفكار، ما بين سرقة والده!، ولكن أي أموال سيجنيها من وراء سرقة أبيه؟! ثم سرقة القهوة، ثم سرقة محمد أفندي!، بعد وقت عميق في التفكير استقر في ذهنه سرقة الحاجة ســـعدية، قام لتوه إلى الرجل المحشور بين الكرسي والمنضدة، مستأذنًا فى الانصـــراف لبرهة من الوقت، نظر إليه الرجل كمن يطلب منه أن يعيد السؤال مرة أخرى، على كلٍ انتبه رمضان إلى لغة الحوار الصامت تلك فأعاد الســـؤال مرة أخرى، أطبق الرجل المحشور شفتيه، ثم ابتسم، وأومأ برأســـه موافقًا، انطلق رمضان ناحية مدخل العمارة، وأمام الخروف لمح الحاجة سعدية قابعة آخر الطرقة بملابسها السوداء المهلهلة، رتب برأسه بداية الحوار، دخل على الحاجة سعدية قائلاً:

- أزيك يا حاجة.

- بخير يا رمضان .

- كـــ.. كـــ.. كل سنة، وي.. وإنتِ طيبة يا.. يا حاجة.

نظرت إليه الحاجة ســـعدية وبخبرة بنت البلد علمت أنه وراء جملتي المدح طلب، فقالت:

- قصر وأدخل في الموضوع يا رمضان، وقول عايز إيه؟

قال رمضان بعد ما أصيب بدوار من هول المفاجأة:

- بـــ.. بـــ.. بنت حلال.. إ.. إ.. إلا أنا طالب منك فلوس ســـلف يا حاجة؟

قالت الحاجة سعدية:

- منين يا رمضان، الموضوع كله على إيدك....

لم يدعها رمضان تكمل كلامها، قائلاً:

- يا.. يا.. يا حاجة علشان خاطري.. الموضوع موضوع حياة أو موت !
- يعني منين يا رمضان؟!
- من معاكِ يا حاجة .
- لو كان معايّ ماكنتش اتأخرت عنك .

18

رفضت الحاجة سعدية إعطاء رمضان فلوس، كذلك فهي لا تريد معرفة ما هو موضوع الحياة أو الموت الذي وقع فيه رمضان؟، حتى لا تعطيه ما يعينه على قضاء حاجته، كذلك هو لم يكن ليلح عليها أكثر من ذلك، فكأنه كان متأكدًا من الإجابة أو أنه يقوم بعمل ما يمليه عليه ضميره حتى لا يترك لنفسه لحظة ندم على أنه لم يقم بالاستدانة من الحاجة سعدية. عاد رمضان مسرعًا إلى القهوة، وهناك تضاربت الأحداث برأسه، إنه اليوم الأخير في المهلة التي حددها على نفسه، علت وجهه مسحة كآبة!، أسند رأسه إلى المنضدة الرخامية، وجلس يفكر، وأي تفكير يجدي؟!، وأي تدابير تصل لحل؟! كلها إلى الموت!، الموت ولا شيء سواه!!، على كل فهو يفكر، يفكر تفكير الأم الثكلى، يندم...، ويعض على صابعه!، ولكن بلا جدوى، قضى الأمر، واستوى الموقف، وأوشك رمضان على جني تجارته!!.. نعم تلك التجارة الكاسدة، لعن برأسه طه الساعي، وما ذنب طه الساعي؟!، ألم يكن لك عقل تفكر به؟!، أفاق من غفلته على صوت المعلم نبراوي وهو يقول)واحد شاي تقيل لون الدم يا رمضان .(تمنى رمضان لو أن الأرض تنشق وتبلعه، الدم!! نعم هو ولا شيء غيره!!، بسرعة جذب رمضان الشاي من على المنضدة الرخامية وجرى به ناحيته)إزيك يا رمضان؟(، قالها نبراوي وهو يوشك على سحب أول رشفة من كوب الشاي، فأجاب رمضان وهو يعتقد أن الإجابه لم تصل إلى أذن المعلم نبراوي فقد شوشت عليه صوت الرشفة:

- الـــ.. الـــ.. الحمد لله .

- يعني يا رمضان ما جتش في الميعاد المحدد؟!

- والله يا.. يا.. يا معلم نبراوي...

لم يدعه المعلم نبراوي يكمل حديثه فقد أشار إليه أن يصمت، ثم قال:

- المواضيـــع دي الكلام فيها مش على القهوة يا رمضان، عدي عليّ بعد ما تخلص ورديتك.

- أ.. أ.. أمرك يا معلم.

دخل رمضان في دوامة التفكير، على كلٍ فقد أقنع نفسه أن مثل هذه الدعوة هي وقت للحوار والتفاهم، وهو في ظل هذا التفكير جاء صوت:

- واحد شاي يا رمضان.

ودون أن ينظر رمضان إلى مصدر الصوت رد قائلاً:

- حـــ.. حـــ.. حاضر يا عم عزت.

***

- مش بعادة يا رمضان، مسلم بدري النهارده !

- ســـ.. ســـ.. سعيد.. أسكت.

- إيه فيه إيه؟

- و.. و.. ولا حاجة !

- يا رمضان دا أنت لونك مخطوف.

- شـــ.. شـــ.. شوية مشـــاكل.. مـــ.. مـــــ.. مع واحد صاحبي، ورايح أسويها.

- عمومًا يا رمضان إنت بتكذب عليّ، لكن إنت حر.

وانطلـــق رمضان وهو خائف يرتقب ناحية بيـــت المعلم نبراوي، طرق البـــاب، لم يكن يتوقع أن يفتح الباب طه الســـاعي، قائلاً:

- إزيك يا رمضان، فينك يا راجل؟، على العموم أنا عملت اللي عليّ، صحيح إنت ابن حتتي وأنا ياما نصحتك، ما تشتغلشـــي في التقيل دلوقتي، يا رمضان إنت لســـه خبرتك بسيطة، ماسمعتش كلامي، خلاص اتحمل نتيجة ضلامة عقلك!

دخل رمضان البيت وهو يتوقع هبوط «شـــومة» على رأسه تنهي ما به من خوف !

- أهلاً يا معلم رمضان .

وقبل أن يجيب رمضان جاءه سؤال شديد اللهجة:

- معاك المعلوم؟

ارتجف رمضـــان، وماتت الكلمات في حلقه تـــكاد تقضي عليه، ولكنه انطلق قائلاً:

- الـــــ.. الـــ.. الحق يـــا معلم، الـــ.. الحالة اليومـــين دول، مُـــ.. مُـــــ.. مُش ولابد والله!

نظر إليه المعلم نبراوي بعد ما قرب بين حاجبيه.

- يعني إيه؟!

وأكمل قائلاً:

- إنـــت ياض يا رمضان، إنت عايز تاكلـــني؟!، لأ.. دا بُعدك، حياتك قدام الفلوس.

وما كاد المعلم نبراوي ينهي كلامه، حتى سمع رمضان يقول:

- مـــ.. مـــ.. مين يقدر ياكل عليك فلوسك يا معلم؟!

أشـــار المعلم نبراوي، فدخل أربعة رجال، التفـــوا حول رمضان، الذي صرخ:

- هـــ.. هـــ.. هتعمل إيه يا.. يا.. يا معلم؟!

قال نبراوي بعد ما جذب نفس عميق من شيشة كانت بجواره:

- ولا حاجة يا رمضان.. هترقد لمدة أسبوع.

ثم نظر إلى الرجال قائلاً:

- مُش أقل من أسبوع !!

***

- لسه يا رمضان مُصر ما تقلش مين اللي عمل فيك العملة دي؟

قالها رجل التحقيقات لرمضان.

- دول ناس ما عرفهمش!

نظر إلى رمضان وهو في غاية التعجب، ثم لف حول السرير قائلاً:

- تشك في مين يكون بعتهم يضربوك؟

- و.. و.. والله ما ليّ أعداء !

قال وقد بدا عليه الملل من إنكار رمضان:

- يا رمضان السكوت مش في مصلحتك !

قال رمضان واضعًا يده على صدره:

- دا أنا شـــغال في قهوة على قد حالي، من البيت للقهوة، و.. و.. ومن القهوة للبيت، إن كان في بعض الأحيان، بـــ.. بـــ.. بطلع أتمشـــى شوية مع نفسي زي النهارده.

قال المحقق بعد ما وقف على باب الحجرة، وهو يرتدي الطربوش:

- ماشي يا رمضان.. يا رب تكون صادق.

19

لم يكـــن النوم ليطرق جفون محمد أفنـــدي، لم تكن جمالات لتفارق أركان عقلـــه، ظل هكذا يصارع الوهم الذي غلبه، مصورًا له أنه في حوار حي مع جمالات، ذلك الحوار الذي لم يكن ليخلو هو الآخر من مشاحنات عاطفيـــة مثيرة مهيجة وقاهرة للأعصاب، وأخيرًا نام وهو ينتظر الصباح عله يكون أكثر تفاهم وقرب، وفي تمام الثامنة كان محمد أفندي يتأهب ببذلته الزرقاء ليـــودع حجرته ذاهبًا إلى العمل، عابـــرًا بذلك الصالة، وطارقًا بقدمية بلاطها معلنًا بحركـــة ميكانيكية تمام الثامنة، موقظًا بهـــا جمالات، لكنها هي الأخرى على ما يبدو لم تكن تنتظر في هذه المرة طرقات قدمه، فقد كانت واقفة بصورة ملتوية على باب حجرتها). صباح الخير يا ست جمالات.

يســـعد صباحك يا محمد أفندي هكذا تحاورت الألســـنة! بعد حوار عيون صامت اســـتمر لدقائق كان مرادفه:

- بحبك يا جمالات، وأنا منتظر ردك على أحر من الجمر؟!
- يا محمد أفندي أنا متزوجة !
- أعمل إيه في قلبي؟!
- دا قلبك وإنت حر فيه .
- وقلبك اللي أنا حاسس إنه دايب فيّ؟!

لم تجب جمالات ودخلت في حوار مع نفسها:

- يا ترى إيه اللي عرفه إن قلبي دايب فيه؟.. لأ.. لأ.. هو أنا قلبي دايب فيـــه؟!.. دا كل الموضوع إن كلامه حلو.. يـــا بت يا جمالات إنتِ هتضحكي على نفســـك، أنا عارفة إن قلبك دايب فيه.

نظرت إليه جمالات كأنها تقول:

- لا.. أنا قلبي لأبو عيالي!

وأكملت في نفسها:

- إنتِ هتضحكي على نفسك يا جمالات .

ثم جاءها صوت عزت:

- يا جمالات الساعة كام؟

قالت وهي تلقي نظرة فاحصة على ظهر محمد أفندي:

- الساعة ثمانية.

أخذ محمد أفندي نفس عميق من هـــواء الردهة، فقد أصبح معتادًا على الاصطباح برائحتها، وأخذ يقفز على درجات السلم بصورة بهلوانية، وهو في غاية الســـعادة، وما أن لمح نظرات الحاجة سعدية النائمة في آخر الردهة مستغربة، حتى بدأ يهدئ في مشيته، مبتسمًا وقائلاً:

- صباح الخير يا حاجة.

قالت بعد ما ابتسمت في خبث:

- صباح النور يا محمد أفندي، مالك نشيط النهارده؟

- الرياضة حلوة على الصبح.

ولم ينتظر تعقيب من الحاجة ســـعدية، فقالها وكان قد اقتطع بها الطرقة.

- الرياضة هي اللي حلوة !

وانفرجت أساريرها عن بسمة خبيثة.

***

صعد محمد أفندي مبنى «النظارة» في رشـــاقة غير معتادة، وواضحة لكل زملائه في العمل، جلس على مكتبه، بعد ما ألقى تحية الصباح على كل زملائه في العمل، ثم تلفت حوله كمن يبحث عن شـــيء، ولما انتهى أخـــرج من جيبه النظارة، وفتح إحدى المجلات من الخلف وهو يقول:

- خير اللهم اجعله خير.

وما كاد ينتهي منها، حتى صرخ أحد زملائه قائلاً:

- شوف ليّ حظي النهارده يا محمد أفندي؟

وما كاد ينتهي هو الآخر، حتى صرخ زميل:

- ترفعوا عن المعتقدات الباطلة؟

ودخلا في حوارات ليس لها آخر، وما كان محمد أفندي ليدخل فيها، فهـــو يريد أن يظل عقله يفكر بهدوء في جمالات، ولما علا صوتهما، صرخ قائلاً:

- واحد شاي زيادة سكر يا عم مطاوع.

وانثني على المكتب يرتشـــف من كوب الشاي تارة، ويفكر في جمالات تارة ثانيـــة، ويرقب الحوار بين زميليه تارة أخرى .

20

لم تكن الشـــمس قد أرســـلت أشـــعتها، حتى كان خبر رقود رمضان ببيت الحكيم بعدما عثروا عليه طريح إحدى الطرق المهجورة قد تســـرب إلى حارة العطار جميعًا، وكالعادة التقى عزت ســـعدية ككل صباح فى الردهة، تغير وجه ســـعدية وهي تســـأله عن معرفته بما جرى لرمضان، فأجابها ومن بالمحروســـة كلها لم يدر بما حـــدث لرمضان، واتفقا على زيارتـــه اليوم بعد العصر ببيت الحكيم لارتباط عزت بميعاد مهم، ســـلم عليها وانطلق، وجلســـت الحاجة سعدية تفكر في نفسها، بالأمس جاءني طالبا سلفة لموضوع حياة أو موت، واليوم هو طريح إحدى الطرق المهجورة بين الحياة والموت، مـــن الجاني؟ وماذا وراء رمضـــان؟، لكنها عدلت عن تفكيرها بصوت مســـموع، الأمر لا يعنيني!، وبينما هي كذلك قاطعتها جمالات قائلة (صباح الخير يا حاجة سعدية)، ردت وهي تداعب خصلات شعر سقطت على جبهتها:

- عزت عامل معاكي إيه؟

- ربنا يكتبله الخير، بيموت كل يوم عشان خاطرنا.

كمن عرفت مغزى السؤال، الحق يتقال.. يعمل اللي ما يعملوش حد!، رمقتها سعدية بنظرة مفادها، اتعجبك عيشة كهذه؟، ثم صرحت بالسؤال، فأجابتها جمالات ربنا يبعت عن قريب، اســـتغلت ردها سعدية فسألتها.

ومين اللي يدور ع التاني.. العيشة الحلوة ولا إنتي؟

قالت جمالات بعد ما ضحكت ضحكة أنثوية مثيرة:

- اللي في دماغك لا يمكن يحصل؟!

وصمتت برهة، ثم تمتمت بكلام غير مفهوم، ثم احمر وجهها وقالت:

- يظهر يا حاجة إنك كبرتي وخرفتي !

احمـــر وجه الحاجة ســـعدية التي كثيرًا ما حاولت الســـيطرة على أعصابهـــا، ثم صرخت فيها، بتشـــتميني وأنا كنت ســـند ليكم، ده آخر المعروف يا جمالات.

وقامت جمالات ودموعها قد غمرت خديها وزاد احمرار وجهها، وانتفض شعرها المنســـدل على ظهرها، وسُمع أنينها وهي تصعد درجات السلم .

***

دلف يمينًـــا، ولم يلق بالًا لرائحة الطرقة النتنـــة، ودون أن ينظر إلى الدرجتين الخداعتين عبرهما في رشـــاقة، ولم يلق بالًا للحاجة ســـعدية أيضًا، وكأنه لم يرها، لا بل كان ذهنه مشـــغولاً طوال ساعات العمل في طريقة يســـتطيع من خلالها القرب من جمـــالات، وضع قدمه على أول درجات السلم ليصعد، استوقفته الحاجة سعدية مستفهمة عن عدم إلقاء الســـلام، فتبســـم إليها ناظرًا، وهم بالصعود فعاجلته مستفهمة عما إذا كان ســـيزور رمضان، بدا على وجهه علامات الاستغراب، وقال:

- رمضان !!.. نزوره فين؟

قالـــت بعدما قاربت ما بين حاجبيها، وعقدت جبهتها كأنها شـــبكة مرســـومة على وجهها، وأوضحت أنهم قد عثروا عليه وقد هاجمه قطاع طرق، فأنقذه أولاد الحلال ونقلوه إلى بيت الحكيم، وسألها عما إذا كانت توصلت الشـــرطة للفاعل؟، أجابته إنها لا تعرف أي شيء.. وإنها وعزت

سيكونان في زيارته اليوم بعد العصر، استجوبها بعدما أومأ برأسه موافق:

- أنا وإنتِ وعزت بس .

لم ترح الحاجة سعدية قلبه، وقالت في خبث:

- أنا وأنت وعزت وبس.

لم يجب محمد أفندي على كلامها، فهي كانت تنتظر أن يسأل عن جمالات، انتظرت، وطال انتظارهـــا، حتى أصبح من الخطأ أن تتكلم في هذا الموضوع، إلا أنها بحب اســـتطلاع وشـــغف موضوعات غرامية، قالت، حتى يتســـنى لها القيام بممارسة دورها التي تتمنى كثيرًا أن تجده:

- والله كانـــت جمالات قاعدة معايا النهارده الصبح، ونســـيت أعرض عليهـــا الموضوع، لكن هي عمومًـــا أو تقريبًا مش هتروح معانا...

وصمتت كمن تنتظر من محمد أفندي أن يسألها في شغف عن سبب عدم مجيء جمالات معهم إلى بيت الحكيم، إلا أنه كان أذكى منها فلم ينبث بكلمة، فأكملت:

- أصل أنا حاسة كده إنها تعبانة شوية.

وبدأت تســـرق النظرات من وجه محمد أفندي، علها تلمح التغير إثر سماعه خبر مرضها، لكنه كان كالجليد، وأخيرًا بدأت شـــفتاه تتأهب للانطلاق، فاســـتأذنها منصرفًا وصعد السلم بخطى ثابتة، كأنه انتصر في تلـــك المعركة التي احتدمت بينه وبينها !

***

أذن العصر، وأي أذان يســـتجيب له ذلك البيت؟!، وأي صلاة تُقام في هذه الشـــقة منذ إنشائها؟!، اللهم إلا بعض فجر تصليه الحاجة سعدية!

صعدت الحاجة سـعدية وأيقظت محمد أفندي، وبينما هما واقفان على بـاب الحجرة يتفقان على كون الزيارة، إذ خرج عليهما عزت قائلاً:

- أنا جاهز، ولحظات وتبقى جمالات جاهزة.

لم يستطع محمد أفندي أن يخفي فرحته، فقد طار قلبه عند سماعه الجملة، فقـد كانت مثل قطرات الندى السـاقطة على أوراق الأزاهير اليانعة، وبخبث أنثوي اسـتطاعت الحاجة سعدية أن تلمح تلك الفرحة الطائرة على وجهه، والطارئة على قلبه، يا لها من مفاجأة سـعيدة. وفي لحظـات كانوا (عزت - الحاجة سـعدية - محمد أفنـدي) في الصالة، كأنهـم حراس في انتظار الأميرة التي سـتطل عليهم ببهجتها من باب الحجرة، وطال الانتظار إلى أن خرجت كما ظنوها أميرة في ملابسـها المتواضعة، فاتنة بشعرها الأصفر المنسـدل على ظهرها، جذابة بعينيها العسليتين، يانعة بوجهها الأحمر الدامي، وجسدها البض الملفوف، أوقعت قلب محمد أفندي في قدمه!، وأصابت الحاجة سعدية بغيرة قاتلة!، وظل الصنم كما هو، حجر لا يتحرك !

وفي بيـت الحكيم كان محمد أفندي في مواجهة جمالات، هكذا كان ترتيب الجلسـة كما أرادت الحاجة سـعدية، وبعد حوار طويل دار فيما بينهم ورمضان عن ملابسـات الحادث التي تهرب رمضان في الإفصاح عن أي منها، وأن كل ما جرى هو لا يدري عنه أي شـيء! وفي أثناء حديثه كان يتحاشى نظرات الحاجة سـعدية التي يعتبرها خيطًا إذا أفصحت عن أي شـيء من أنه طلب منها سـلفة متعلقة بموضوع حياة أو موت، فسيكون مصيره السجن.

استطاع رمضان بخبرته أن يحوّل مجال الكلام مما جرى له إلى بعض القفشات المضحكة التي مر بها، فانطلق يرويها بسخرية، وما أن رآه عزت على هذه الحالة حتى انطلق هو الآخر يروي القفشات التي قابلته، كان

انشـــغالهما في رويها بمثابة فرصة لمحمد أفندي وجمالات حتى يتبادلا النظرات، ولم تكن الحاجة ســـعدية هي المتفرج الوحيد عما يجري، فأبت ألا ينتهي الحديـــث حتى تقوم بدور المخرج، فنظـــرت إلى محمد أفندي وجمـــالات نظرة تؤكد لهما من خلالها أنها على علم بما يجري بينهما مـــن نظرات، وأخذت تعمـــل على صرف نظر عزت ورمضـــان، فما كان ينتهيان من إحدى القفشات، حتى تذكرهما بموضوع عفى عليه الزمن وتطلب منهمـــا أن يرويا بحذافيره، فكانا طوعًـــا لها حتى يؤكد كل منهما لها أنه موســـوعة تاريخية عما يجري بحارة العطار، ثم اختلفا في موضوع» عطية الموس» الذي أكد عزت أنه ظل متخفيًا في مخزن العمارة إلى أن ابتلعتـــه عفريتة المخزن، وأكد رمضـــان أن عطية ظل ثلاث ليال متخفيًا في شـــجرة الفيكس القابعة أمام القهوة، إلى أن هرب منها دون أن يراه أحد، وصار بينهما اختلاف، لم ينقطعا حتى دخلت السيدة التي تعمل مع الحكيم لتأكد لرمضان إمكانية خروجه، على أن يترك ســـتين قرشًا ثمن الأعشاب التي احتساها!

21

نظر رمضان لوجوه الحاضرين كأنه يسألهم أن يفعلوا شيئًا لهذه السيدة، لم تلق النظرة أي اهتمام لدى محمد أفندي، فقد كان حالمًا إلى ركبتيه، يملأ عينيه بذلك الجمال الطبيعي، يسرق النظرات لعينيها، وفي الوقت نفسه يترقب نظرات عزت حتى لا يراه وهو ينظر لزوجته، أما جمالات فكانت هي الأخرى كذلك، غير أنها كانت تبادله النظرات على فترات متباعدة، وهي تعلم جيدًا أنه يحترق من هذا الثقل المتعمد، فأنى لها؟! أتنظر لرجل غير عزت؟! ذلك المحني الأسمر، على كلٍ فهو أبو العيال، والحاجة سعدية ماذا بيدها؟! الكل يعرف أنها لا تملك ثمن العلاج!!، وعزت كذلك، ورمضان أول العارفين بذلك، فهو إلى الآن يبحث عن عمل، أي عمل حتى يطعم أبناءه الصغار، أعادت السيدة الجملة، واتبعتها قائلة بماذا أجيب الحكيم؟، هذه هي الجملة التي أيقظت محمد أفندي من غفوته الحالمة، فسألها عن أي استفسار تجيب الحكيم، نظرت إليه كأنها تسخر من سؤاله، وأعلمته بأمر الستين صاغًا، أجابها على الفور،«أنا عنه مسددًا»، وتتبع السيدة، لحقه عزت، إلا أن الحاجة سعدية أوقفته متعللة بمساعدتها في انهاض رمضان، ثم نظرت بخبث تجاه جمالات طالبة منها الذهاب مع محمد أفندي، خافت جمالات أن ترفض حتى لا يشك عزت في شيء، فلحقت بمحمد أفندي إلى الحجرة التي تقف فيها السيدة، وما أن وقفت بجانب محمد أفندي حتى شعر أن قلبه قد طار من مكانه، وبسرعة انتهى محمد أفندي من الدفع للحكيم، وخرجا كأنهما زوجان في ليلة زفاف هو ببذلته الزرقاء

وهي بفستانها الجميل وشعرها الممشط والمنسدل على ظهرها، مشيا معًا في طرقة طويلة.

- أزيك يا جمالات؟

- الله يسلمك.

ثم صمتت برهة، وأردفت قائلة:

- عينك كانت هتاكلني في الأوضة.

ابتسم ابتسامة المنتصر.

- أصلي نفسي أحب !

- ما تحب ولا تتجوز، هو حد منعك .

- لأ.. بس اللي بحبها مابتحبنيش !

تغير وجه جمالات وضربت بكفها على صدرها، فارتج رجة خلعت قلبه، أراد أن يحضنها إلا أنه استطاع السيطرة على أعصابه الثائرة، وقالت:

- ليه؟!.. إنت فيك عيب، ولا فيك عيب، دا إنت يا سي محمد سيد الرجالة، وميت من تتمناك!

ظنها لا تفقه شيئًا، لكن يبدو أنه هو الذي لا يفقه شيئًا.

- يعني أنا مثلاً يوم ما تقدم ليّ عزت، أبويا وافق عليه، وأنا وافقت عليه، ميغركش الفقر ولا الغنى، الفلوس مش كل حاجة، دول لو جابوا لي رجالة العالم كله مالقيش فيهم ضفر عزت.

كانت تعرف أنها بكلامها تشعل فيه النار، وكانت تراقب تعبيرات وجهه في سعادة، حقيقي أنها كانت تود لو أخذته في حضنها بقوة، لكنها

تعرف أنه إن نالها فلن يفكر فيها، ليس بهذه الســـهولة.

- يعني دا رأيك فيّ يا ست جمالات.

قالت وقد تصلب وجهها مؤكدًا ذلك:

- دا رأي أي واحدة عاقلة.

وأردفت:

- وبعدين مين دي وأنا أقنعها لك!

تحـــير محمد أفندي في أمرها، أهي حقًا لا تعلم أنه يقصدها؟ أم أنها تحاول خداعه؟! ثم قال:

- نتقابل وأقول لك عليها .

فاجأت جمالات كلمة» نتقابل»، وقالت:

- بعد ما ترجع من الشغل بكرة نقعد أنا وأنت والحاجة سعدية.

لم يدعها تكمل، وقال:

- لأ.. لأ.. الحاجة ســـعدية إيه؟! أنا مش عايـــز حد يعرف الموضوع، يفضل ســـر بيني وبينك ونحدد ميعـــاد ومكان نتقابل فيه.

وهنا خرج عزت قائلاً:

- بسرعة شوية يا أستاذ محمد .

- حاضر.. حاضر.. يا عزت.

22

كان محمـــد أفندي - ككل الموظفـــين - ينتظر يوم الخميس بفارغ الصبر، فهو اليوم الذى يســـبق العطلة الأسبوعية والعمل فيه نصف يوم، صعد الشـــقة بعد ما رجع من عمله، كانت الحاجة ســـعدية نائمة في الطرقة كعادتهـــا تلاعب أحد أبناء عزت، وجمالات وحدها في الشـــقة تنظف حجرتها وحجرة الحاجة سعدية، وأمام باب حجرة الحاجة سعدية لمحها وهي تنظف أرضية الحجرة .وقف بجســـده سادًا الباب قائلاً:

- أزيك يا جمالات.

انتفضت جمالات ضاربة بيدها على صدرها، قائلة:

- مين.. محمد أفندي.. خضتني والله!

- ليه؟! هو صوتي وحش للدرجة، وللا كلمة أزيك تخض !

قالت بعد ما أصابها شيء من الإحراج:

- لأ.. بس.

لم يدعها تكمل حديثها قائلاً:

- رمضان عامل إيه دلوقتي؟

- الحمد لله.. جهزت الفطار، وعزت جابوا فطر معانا، والســـاعة تسعة قال إنه هيروح القهوة .

- والله.. يعني رمضان في القهوة.

قالت جمالات بعدما أصاب وجهها مسحة حزن:

- التعب بعيد عنك يا محمد أفـــ...

لم يدعها تكمل قائلاً:

- يا محمد بس، من غير أفندي.

ضحكت ضحكة أبدت فيها عن جمالها الخلاب قائلة:

- اللى تشوفوا يا محمد بس .

ضحكا في سعادة شديدة، واقتربا من بعضهما أكثر، ثم صمتا برهة، إلا أنه أعاد جو المرح ثانية عندما قال:

- يا محمد بس!

أصيبا بهيستريا الضحك، اقترب منها حتى إنه أحس بلفح أنفاسها، ثم هجم على شفتيها بقوة، ومد يده وعصر ثديها، تأوهت وتركت له شفتيها يأكلهما أكلًا، غاصا في بعضهما البعض، وبحركة غير متوقعة رجعت جمالات وهي تلهث بشدة وقلبها يدق بعنف، اعتذر محمد أفندي عما بدا منه بشـــدة، واتفقا تبريرًا لما حدث أن الشيطان قد أذهب عقليهما. خرج مسرعًا من حجرة الحاجة سعدية، وهو على باب حجرته كان عزت أمام باب الشقة لكن دونما أن يراه محمد أفندي، دخل عزت، نظر في حجرته لم يجد جمالات فذهب إلى حجرة الحاجة سعدية فوجدها قد أوشكت على الانتهاء من ترتيب ملابســـها. قال عزت في صرامة وحيرة ظاهرة في نبرات صوته:

- بتعملي إيه يا جمالات؟

اصطنعت جمالات انتفاضة ثم ابتسمت ابتسامة جذابة قائلة:

- قول إحم ولا دستور...

ولم يدعها تكمل قائلاً:

- ردي على سؤالي يا جمالات .

نظـــرت إليه جمالات بغرابة، واشـــتغل عقلها وفطنـــت للغة الحوار، فحاولت تدعـــي اللامبالاة قائلة:

- مالك يا ســـي عزت، شايفني باعمل إيه؟! بلعب قرود، ما أنا قدامك بنظف أوضة الحاجة سعدية.

لم يـــرد ونزل مهرولاً على الســـلم وهو في غايـــة الضيق والحنق على جمالات، خرج محمد أفندي من حجرته بعد ما ارتدى ملابس النوم ذاهبًا للحمام، وأمام باب حجرة الحاجة سعدية نظر فيها فوجد جمالات، دخل إليها ثانية يؤكد اعتذاره عما جرى، إلا أنها أكدت ثانية أن الشـــيطان قد أذهب عقليهما فجرى ما جرى، وأكمل معقبًا:

- أما بخصوص الميعاد، إيه رأيك نتقابل بكرة عند النيل؟

- عادي خالص.. بس إمتى؟

قال وهو في غاية السعادة، فلم يتوقع ردها:

- وقت ما تحبي أنا ما عنديش شغل بكرة .

- خلاص بعد ما أفطر عزت والعيال أكون فضيت.

أومأ محمد أفندي برأسه وهو يقول:

- يا محمد وبس .

ضحكا واستأذن في الانصراف .

23

– عزت قوم الساعة بقيت ثمانية.

قالتها جمالات وهي تفتح بـــاب حجرتها ذاهبة إلى الحمام، قام عزت من النوم وهو في غاية الكســـل، ارتدى ملابس الخروج، ثم وقف على باب الشقة قائلاً:

– صحي العيال بسرعة وأنا هاجيب الفطار يا جمالات.

أحضر عزت الفطار، ثم أيقظ رمضان ليتناوله معهم، وبسرعة كانت الأيـــادي كلها قد عملت في الوجبة وأنهتهـــا، ثم انتفض رمضان وعزت خارجين هذا لقهوته والآخر للبحث عن عمل، وأمام القهوة أقسم رمضان على عزت شرب الشاي معه، فاحتســـيا الشاي، وقام رمضان لعمله وظل عزت يفكـــر في أى الاتجاهات يذهب إليها، وبينما هو على هذه الحالة إذ لفت انتباهه محمد أفندي ببذلته الزرقاء، فنظر في ســـاعة القهوة فوجد عقاربها قد قاربت على إعلان التاسعة فقال لرمضان:

– محمد أفندي رايح فين يوم الجمعة؟

قـــال رمضان الذي جذبه ســـعيد النادل مؤكدًا عليه إخراج شيشـــة وشاي لأحد الزبائن:

– الله يعمر بيته.. ليه؟

– أصله لسه نازل دلوقتي.

لم ينته عزت من كلمته حتـــى رأى جمالات هي الأخرى خارجة من بـــاب العمارة، كانت تلبس يشـــمكها وملاءتها اللـــف التي توضح بنيان جســـمها، ومن في الحارة لها جســـم بثنيات مثل جمالات؟، جن جنونه، فاستأذن رمضان محاولاً إخفاء غضبه في الذهاب للبحث عن عمل، لحقها عزت، وفي أثناء سيره خلفها يؤكد لنفسه أن جمالات لا تصل بها النذالة لهـــذا الحد!! كذلك يتمنى أن يكون محمد أفندي ذاهبًا إلى مكان وهي ذاهبة لقضاء أمر آخر!!، لكنه يعود كئيبًا ويتساءل أي أمر آخر هذا حتى تخرج إليه جمالات؟! وســـار محمد أفنـــدي في طريق غير الطريق المؤدي إلى شـــارع المأذون، كذلك لحقته جمالات، وأمام نهر النيل وقف محمد أفندي، نظر خلفه فتخفى عزت، ووجد جمالات تبتسم له، صافحها بيده ثم اســـتندا على شجرة كأنهما حبيبين في موعد غرامي.

اســـودت الدنيا في وجه عزت ودار به التفكير؟! حـــاول تبرير الموقف، ولكن أي موقف سيبرر؟!، والشمس إذا طلعت لا يستضاء بالنار، كذلك لا يستغنى في غالب الأشياء بالاشـــتهار!، وأي اشتهار هذا؟! إنها حقيقة واضحة وضوح الشـــمس في كبد السماء، لقد كان عزت على يقين من هذا!، كذلك فهو كان يخشـــى هذا منذ أن رفض مصاريف علاج ابنه، لقـــد كان يريد منذ دقائق أن يصف لرمضـــان خوفه من نذالة محمد أفنـــدي!، لكن هل ســـيصدق رمضان؟! بالطبـــع كلا!، فهو الذي تكلف مصاريـــف علاجه، وعلاج ابني، أيصح مثله نـــذل؟!، نعم فهو نذل!، هكذا خرج تفكير عزت في شبه صرخات مكتومة لا تؤثر سوى فيه!، فلا يسمعه ســـواه!، ولا تقتضي إلا على إياه! وقف عزت خلف شـــجرة يتابع ما يدور بينهما في حزن شديد:

– أزيك يا جمالات؟

لم ترد بل اكتفت ببسمة كأنها تقول له:

- أنت أدرى بحالي مني.

قال محمد أفندي مبتسمًا:

- أزيك اللي فاتت خضتك، ودي مش سمعاها؟!

أيضًا لم ترد جمالات، فقال:

- بحبك يا جمالات .

تغير وجه جمالات واختفت بســـمتها، وصلت مكانها تكشيرة عابسة، واستأذنت محمد أفندي في الانصراف إلا أنه ترجاها في الجلوس، فجلست بجوار الشـــجرة وهي تؤكد له أنها هي المرة الأخيرة التي ستحدثه فيها.

قال محمد أفندي:

- جمالات.. لازم نعيش الواقع!!

قالت وهي تصطنع الحزن:

- واقع إيه؟

- واقع حبنا يا جمالات !!

قالت وهي تنظر إليه وعلى شفتيها ابتسامة السخرية:

- حبنا؟!.. إنت ناسي أنا متزوجة !!

- لأ.. مانستش!!

- خلاص سيبني في حالي .

- وحبنا.

- هتقول تاني حبنا.. أنا قلت بحبك؟ .

- لأ.. بس أنا حاسس إن عينكي بتقولها دايمًا .

- لأ يا سيدي.. عنيا مابتقلش خالص !

قال وهو يبتسم:

- يا جمالات كل كلمة بتنطقيها كأنك بتقولي «بحبك يا محمد».

أومأت برأسها، وعلقت على شفتيها ابتسامة قائلة:

- ربنا يخليلك إحساسك.

ثم قامت من مكانها واستأذنت في الانصراف، فقال:

- نتقابل بكرة في نفس المكان.

مشـــت جمالات، وظل محمد أفندي جالسًا يفكر كيف سيكون لقاء غدًا؟! أمـــا عزت فكان يحترق من الداخل !!

24

ألحت على ذهن رمضان فكرة سـرقة الحاجة سـعدية كثيرًا، وهداه تفكيره إلى التمويه. استيقظ مبكرًا على غير العادة، يعد لسرقة الكنز المدفون في الحجرة .

- صباح الخير يا حاجة سعدية .
- يسعد صباحك يا سعيد .
- الواد رمضان مانزلش وإنتِ قاعدة.. أصلي بنادي عليه وما بيردش !
- لأ يابني هو مانزلش من ساعة ما قعدت، أطلع شوفه يمكن يكون نايم في الأوضة زي القتيل!، الزفت والهباب اللى بيشربوا بيغيبه عن الدنيا .
- حاضر أطلع أشوفه .

وصعد سعيد درجات السلم مسرعًا، طرق الباب .

- مين؟
- أنا سعيد يا رمضان الساعة داخلة على تسعة ونص.
- أدخل يا سعيد .

دفع الباب برفق ثم دخل، فوجد رمضان ملتفًا بلحاف بال، يرتعد:

- مالك يا رمضان؟

- شـــ.. شـــ.. شوية سخونية هيقتلوني.

وضع سعيد يده على رأس رمضان، قائلاً:

- ما أنت زي الفل يا رمضان.

- جـــ.. جـــ .. جسمي !

حاول ســـعيد أن يلمس جســـد رمضان الذي رفض بشدة متحججًا بدخول الهواء .

- ســـ.. ســـ.. ســـعيد.. أنا مش.. هانزل القهوة.. .النهـــ... النهارده.

- خلاص عادي خالص يا جدع، دا إحنا إخوات، يلا سلام.

ونزل سعيد، وأمام الحاجة سعدية، أوقفته بسؤالها:

- رمضان فوق؟!

- فوق، جسمه سخن نار.

- تلاقيه رجع من الغرزة الفجر فالهوا لفحه، أصل أنا عرفاه ولد دماغه ناشفة، عمومًا أنا هاطلع أشوفه !

اســـتأذنها فى الانصراف، وهو يقفز الدرجتين الملعونتين في وســـط الردهة، لاعنًا في ســـره من كان الســـبب في تنفيذهما .

- أزيك يا رمضان؟

- أ.. أ.. أهلاً يا حاجة .

- مالك؟ بس لو تســـمع كلامي وتســـيبك من الزفت اللي بتشربه، وترجع لأبوك وأمك، دا إنت مالكش في الدنيا غيرهم، يجمعوا لك

فلوســـك، وإنت يا ابني كبرت، وبرضك يلزمك زوجة.

ثم قال رمضـــان كلام كان من الصعب على الموجـــات الهوائية أن تنقله لأنه غمغمة مخلوطـــة بتهتهة، فقالت:

- حاسس بإيه؟

قال وهو يستدرج عطفها:

- شـــ.. شـــ.. شوية سخونية.

قالت باســـتهزاء، كأنها حكيم فتح له جميع التخصصات، ودرس في جميع المجالات:

- سخونية..!

ثم أعطته ظهرها وهي تقول متجهة ناحية الباب:

- كوب واحد من الأعشـــاب تخليك حديد، جرب بس من يد الحاجة سعدية، وإنت تقوم زي الحصان.

خرجت الحاجة ســـعدية، ودخل رمضان في حوار مع نفســـه، ترى هل فطنت للعبة؟، لا أعتقد.. على أية حال لماذا أنا الوحيد المتهم بسرقتها؟، لمـــاذا لم يكن عزت أو حتى محمد أفندي؟، هى صفيحة فلوس، صحيح أنا الوحيد الذي طلبت منها ســـلفة، لكـــن أعتقد إن يوميًا عزت يأخذ منها الكثير، قد تكون جمالات، لمَ لا وهي تعلم كل شـــيء عنها؟!

- شـــ.. شـــ.. شكرًا يا حاجة.. من.. من.. من يد ما نعدمها .

هكذا قال رمضان عندما دخلت الحاجة ســـعدية عليه الحجرة حاملة بيدها كوب ينسون ساخنًا أعدته له .

- اشربه ونام هتقوم زي الحصان .

قالتها وهي تجذب الباب برفق خلفها .

قفز رمضان مثل الحصان دون أن يرتشف رشفة واحدة من الكوب، ولما تأكد نزول الحاجة سعدية إلى الردهة أخذ صفيحة الفلوس وخبأها في حجرته.

- السلام عليكم يا حاجة سعدية .
- وعليكم السلام يا عزت .

وأردفت قائلة:

- رمضان عنده سخونية .

تغيرت ملامح وجهه قائلاً:

- سخونية..!!
- شوية سخونية.. لكني عملتله كوب ينسون هيخليه زي الحصان!
- هاطلع أشوفه .
- لأ.. سيبوه دلوقتي.. تلاقيه نايم، العصر كلنا نشوفه .

***

تجمعوا (عـــزت - جمالات - الحاجة ســـعدية) في حجرة رمضان، لم تختلـــف كثيراً عن باقى الحجرات، غير أنهـــا اصغر قليلاً، حصيرة بها ثقوب بعدد المرات التى اعد فيها الشيشـــه فى الغرفة، تفضى الى ســـرير مشـــابهة كثيراً لسرير الحاجه سعدية، ســـرير نحاسي ملكى متهالك، أسند من ناحية الى الحائط ومن الناحية الاخرى امتلئت بانصاف قوالب الحجارة ســـادة الفراغ بين السرير والحائط، وشـــباك يطل على حوش، قالت الحاجة ســـعدية بعدما وضعت يدها على جبهته .

- ما شاء الله.. الحرارة نزلت .

قال عزت تعقيبًا على كلامها:

- الحمد لله.

تغير وجه الحاجة سعدية، ثم قالت:

- يعني مش شربت الينسون يا رمضان؟!

نظر رمضان بحزن شديد أن فاته سكب الكوب، ثم قال:

- والله.. يا.. يا.. يا حاجـــة، كان.. ط.. ط.. طعمه مر.. عـــ.. عـــ.. علقم!

ثم قاموا جميعًا وهم يدعون لرمضان بالشفاء العاجل.

25

ظلت جمالات تفكر كيف سيكون لقاؤها مع محمد أفندي؟، ذلك اللقاء المفعم بالحب والعاطفة البعيد عن هواجس الخوف، فهي معه تنسى الدنيا بمن فيها. هو الرجل الوحيد الذي دائمًا ما يذكرها بأنوثتها وجمالها الضائع مع عزت. تعد في ذهنها ماذا سيقول؟، وبماذا ستجيب؟، وكيف ستنظر إليه قبل الإجابة؟!، وكيف ستتمنع في الإجابة حتى يعيد على ذهنها السؤال مرات ومرات، حتى تتمتع بصوته القوي المفعم بالحب والحنان ثم تتخيل نفسها وهي تبتعد عنه، وهو يقترب فتبتعد أكثر وأكثر، وهو لا يمل!، حتى تكون على حافة المقعد، فلا يدعها حتى تكون بين يديه، وهي تدعي الخوف والرفض، وهو لا يدعها كأنه يعرف أن هذا يمتعها، يجعلها تشعر به أكثر، تقترب منه أكثر، يقبلها، وهي بين الحين والآخر تقوم من غفلتها فتجد يده ملتفة حولها، لا تستطيع الهروب، أو كأنه يتلقى عنها الخوف ومصائب الدنيا، لتجد أن شفتيه قد أثرت في خدها، وزادته حمرة على حمرة، فتصرخ وهى تدعي رؤية عزت فيجيبها ومن سيأتي بعزت هنا؟!. كانت جمالات غارقة إلى رأسها في حلمها الجميل مع محمد أفندي فهي بعد لحظات سيكون كل هذا الحلم على الواقع ينفذ. لم تفق من حلمها، إلا عندما وضع عزت يده على خصرها وجذبها شديدًا صارخًا «بحبك يا جمالات».

نظرت إليه كمن سمعت الجملة منه دعوة ألا تخونه مدى الحياة، وقالت:

- العيال يا عزت.

- العيال نايمة.

قالهـــا وهو يجذبها أكثر وأكثر، ثم رفعهـــا إلى صدره، وانكب عليها لاهثًـــا كل ما يصل إليه فمه، وهي في كل هـــذا لا تبادله، ثم قام وهو يبتسم قائلاً بالفصحى:

- موعدنا الليل.

وأكمل:

- ثانية يكون الفطار حضر يا جميل.

ونزل عزت مسرعًا، أما هي فجذبت الوسادة تقبلها وتحدثها، وتتخيل أنها محمد أفنـــدي، وتطلب منه ألا يدعها مهمـــا كانت الظروف، فهو رجلها الذي كانت تتمناه من زمن بعيد، وهو الفتى الذي كان يراودها أحلامها أيام الصبا، أما عزت فلم يكن إلا فتى من حارتها أعجبت به بعض الشيء، دقائق أخذت تســـتحضر فيها محمد أفندي، تزوم وتلف الوسادة ما بـــين قدميها وتعصرهما، وتتأوه، ولم تشـــعر إلا بصوت أقدام عزت في الخارج عائدًا يحمل الإفطار، أبعدت الوســـادة وتمطت، دفع بعدها الباب.

- الفطار حضر يا ست جمالات.. إنت لسه نايمة.

هكذا أطلقها عزت، الذي جاء بمخيلته أن جمالات تفكر فيه، أســـرع ناحية الســـرير ثم انكب عليها، لولا أنها جذبت نفســـها قائلة: «نفطر يا عزت»، ثم قالت مقلدة له، «موعدنا الليل»، صرخ عزت الذي أصبح منكبًا ببطنه على الســـرير، والوسادة في يده يقبلها، قائلاً:

- بحبك يا جمالات.

ثم نظر إليها قائلاً:

- ردي عليّ يا جمالات .

ويقبلها أكثر وأكثر ويلتهمها، قائلاً:

- ردي عليّ يا جمالات.

حملها ثم أجلسها على السرير، وجلس بمحاذاتها، قائلاً:

- عارفة.. أنا عايز إيه دلوقتي؟

- عارفة.. عارفة.. لكن مش وقته .

ضحك قائلاً:

- عبيطة والله.. دا أنا يا بت عايز أفتح الشباك وأصرخ وأقول «بحبك يا جمالات».

ردت جمالات التي أصابها الضيق من هذا الكلام .

- تبقى اتجننت يا عزت.

- آه فعلاً اتجننت في حبك يا جمالات.

ثم صمت برهة، وأردف قائلاً:

- إيه رأيك يا جمالات بلاش أدور على شـــغل النهارده، ونتمشى سوا، ونرجع أيام زمان.

اضطربت جمالات التي قالت:

- لأ.. لأ.. يا عزت، نتمشـــى في أي وقت، لكن الشغل مهم، أمال نعيش منين؟! ما إحنا سوى طول اليوم يبقى حبني زي ما إنت عايز، العيال يا عزت.

نظر إليها عزت حزينًا، هل كان ضروريًا أن تذكره الشغل.

- أمرك يا ست الكل .

وأكمل:

- تعالي نفطر قبل العيال ما يصحوا .

نظرت إليه مبتسمة، ثم أومأت برأسها دليل الموافقة .

- بحبك يا جمالات .

وقبل أن تجيب، كان واضعًا لقمة في فمها.

نظرت إليه، وعيناها العسليتين بهما حياء يجذب، وشعرها الأصفر المنسدل تحوّل للحمرة التي عكستها وجه جمالات، التهم عزت نصف اللقمة، وهي التهمت النصف الآخر على مضض، انتهيا من الطعام، لبس عزت ملابس الخروج، وما كان من جمالات إلا أن قامت وطبعت على وجهه قبلة الوداع، فخرج عزت وهو في غاية السعادة مستبشرًا بهذه القبلة .أيقظت جمالات أطفالها الصغار، وما هي إلا لحظات حتى كان الطارق على باب حجرتها، تطاير قلبها مع طرقات الباب، وأجابت بشكل رنان يشعل قلب الطارق:

- مين؟

جاءتها الإجابة هادئة بنبرات تحمل الشوق والحب:

- أنا محمد.

لم تنتظر حتى تسمع الباقية، وقالت:

- حاضر يا سي محمد .

وقامت مسرعة إلى الباب، قائلة:

- العيال يفطروا .

أجاب وقد ملكته حدة الشوق ولوعته:

- طيب هستناكي على القهوة.

ارتدت جمالات ملابسها مسرعة، وفي لحظات كانت أمام القهوة، رآها محمد أفندي تمر من أمامه بجسدها البض، وعينيها العسليتين، انتظر حتى دلفت يسارًا على شارع المأذون، المؤدي إلى الشارع الرئيسي، لحقها، وسار بمحاذاتها، إلى أن قاربا إلى الشارع الرئيسي، اقترب منها، أمسك بيديها، نظرت إليه قائلة:

- لأ.. لأ.. حد يشوفنا.

- ومين هنا عارفنا؟!

نظرت إليه مبتسمة، فكلامه صدق، وسارا سويًا، وهي تظن أنهما يسيران إلى أي مكان، مشيا حتى، وجدت نفسها أمام عمارة عالية، جذبها من يدها صاعدًا سلم العمارة، لكنها توقفت قائلة بنبرات مليئة بالخوف.

- على فين يا سي محمد؟!!

نظر إليها قائلاً في ابتسامة هادئة:

- خايفة مني يا جمالات؟!

- لأ.. بس إحنا رايحين فين؟!

جذبها من يدها قائلاً:

- على حب جديد.. حب بشكل تاني.

وصعدا الدرجات القلائل، ثم تلفت حوله يبحث عن البواب، طرق باب حجرته الراقدة أسفل السلم، فتحت الباب امرأة قائلة بصوتها الجريء:

- فينك يا محمد أفندي؟!

ونظـــرت إلى جمالات تتفحصهـــا بعيون جريئـــة في أماكن حرجة، وأكلمت:

- ومين السنيورة دي؟!

تغير لون جمالات وزاد احمرار وجهها، صرخ محمد أفندي فيها:

- فين حسين يا روحية؟

- خرج يشتري طلبات للزباين فوق .

- طيب إديني مفتاح الأوضة اللي فوق .

دخلت بجسدها الضخم القوي وأحضرت المفتاح، وأعطته له قائلة:

- طياري وللا صبحية؟!

رمقها بنظرة مليئة بالحنق والغيظ، ثم صعد الســـلم، فلحقته قائلة باستهزاء:

- يعني مش هيلزمك أي حاجة؟!

صعد الســـلم وجمالات في غاية التعجب، تســـأل نفسها» ماذا يجري لها؟!، لماذا لا تصرخ رافضة؟! أين عقلها؟! وفي لحظات كانا على ســـطح العمارة، اتجها ناحيـــة الحجرة فتح الباب، توقفت قائلة:

- إيه دي يا سى محمد؟!

ابتسم قائلاً:

- حب بشكل تاني .

قالت غاضبة:

- لأ.. لأ.. يا محمد أفندي .

دفعها إلى الداخل بلطف قائلاً:

- جربي وأراهنك إن دا أحسن.

أصاب جسد جمالات رعشة شديدة، وكان محمد أفندي يفتح شباك الحجرة، ثم قالت:

- حد ياخد خبر تبقى مصيبة !

نظر إليها ضاحكًا، قائلاً:

- إحنا في أعلى مكان في مصر القديمة كلها .

أجلسها على السرير، وذهب يتأكد من أن الباب محكم الغلق، نظرت إليه جمالات قائلة:

- أنا ريقي نشف من الست اللي تحت .

- ثانية وتكون المية هنا يا روحي .

ارتوت جمالات حتى شبعت من الماء، كأنها أول مرة تشرب، أخذ منها الماء ثم سكبها على رأسه والباقي على رأسها، صرخت وهي تحاول منعه، فضحك قائلاً:

- في إيه الهدوم هننشرها تنشف؟!

- خلع عنها ملابسها بنهم، وهو يسكب الماء على جلبابها الملتصق بثدييها فبدت حلمة الثدي متصلبة، انقض عليها تقبيلًا وهي

تتأوه، أمســـكها برفق فرقدت على السرير، رقد بجوارها وراح يقبلها وهي تصرخ من النشـــوة، ظلا يمنحان الحـــب لبعضيهما، وأفاقا من ســـكريهما على وقع طرقات على البـــاب، ارتعدت جمالات، فقال:

- مين بيخبط؟

- أنا حســـين يا سي محمد، قلت لتكونوا عايزين غدا، أصل الظهر أذن من نصف ساعة.

- لأ.. لأ.. روح يا حسين دلوقتي .

حاولت جمالات جذب نفســـها من تحته، إلا أنه لم يدعها، فاستماتت قائلة:

- الظهر أذن، وعزت زمانه راجع .

انكب على شفتيها، ثم قام وهو يقول:

- تعرفي تروحي لوحدك يا جمالات؟

نظرت في استغراب قائلة:

- لأ.. وصلني لبداية شارع المأذون.

26

عادت جمالات إلى الحارة خائفة مزعورة وأمام القهوة لوحت لرمضان بالســـلام، أجاب رمضان الذى لمح على وجهها الخـــوف والزعر «اللـــ.. اللـــ.. الله يسلمك»، وابتلع باقي الكلام، ثم استأذن من الرجل المحشور بين الكرســـي والمكتب لمدة خمس دقائق، ثم لحـــق جمالات وفي الطرقة، أوقفته الحاجة سعدية قائلة:

- فلوسي فين يا رمضان .
- فـــ.. فـــ.. فلوس إيه يـــ.. يـــ.. يا حاجة سعدية .
- فلوسي اللي سرقتها من الأوضة، يوم قلت إنك تعبان!

استمع إليها حتى انتهت، فأطلق ضحكة عالية ساخرة، وقال:

- هـــ.. هـــ.. هو إنت عندك فلوس؟!
- عندي صفيحة فلوس وإنت سرقتها يا رمضان.

ثم غيرت لهجتها وهي تقول:

- وإنت هترجعها.. صح يا رمضان.

وضع رمضان قدمه على أول درجات الســـلم وهو يشير إليها بالجنون، فصرخت قائلة:

- اسمـــع يا رمضان.. إنـــت طلبت مني فلوس لموضـــوع حياة أو موت، فاكر.. وبعدها عثر عليك في شارع مقطوع بين الحياة والموت، وأنا ما عرفتش حد بالموضوع دا.

أرجع قدمه من على الدرجة وهو ينظر إليها باهتمام، فأحست بيدها قد سقطت على الوتر الحساس فأكملت:

- أنا ممكن أوصل النقطة، وأقول الكلام دا، لكن اسمع.

أنصت إليها باهتمام وبـــدأت خطواته تقترب منها فابتلعت كلماتها لكنها وجدت من الحكمة الاســـتمرار في الضغط قائلة:

- أنا عارفة فلوسي لسه معاك.. هاتها وأنا بأوعدك سرك في بير .

- حاول الكلام، إلا أن الكلمات لم تطعه، فأخرج كلمتين غير مرتبتين الحروف لم تفهم الحاجة ســـعدية، إلا أنها شـــعرت أن فريستها قد سقطت فأتبعت كلامها قائلة:

- لو الفلوس فوق في الأوضة عندك هاتها، ويا دار ما دخلك شـــر، وإن كانت في أي مكان استنى تجيبها بالليل.

كانت تترقب رمضان وهو يغالب هول السقوط على الأرض، وأكملت:

- هذا وإلا قسمًا.

انفجر رمضان كالبركان وهو يقول:

- لأ يا حاجة ســـعدية.. .بـــ.. بـــ.. بصراحـــة.. أ.. أ.. أنا أ خدت الفلوس.

ابتسمت الحاجة سعدية قائلة:

– ما أنا عارفة.

قرب ما بين حاجيبه قائلاً:

– و.. و.. ومقام الســـت الطاهرة، خـــ.. خـــلال جمعة لتكون الـــ.. الـــ.. الفلـــوس عندك الطاق طاقين .

– اسمع يا رمضان.. أنا هاصبر عليك جُمعة، وبعدها مش هاحذرك، الأومباشي هو اللي هيجيب ليّ فلوسي !

قالتها وكان رمضان قد اقتطع خطوتين في الصالة، إلا أن الهواء قد نقلها إلى أذنه كاملة دون نقص، أو تطاير حروف، وقف على باب حجرة عزت قائلاً:

– ســـ.. ســـ.. سلام عليكم يا ست جمالات.

– سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

– فـــ.. في.. في حاجة وا.. وإلا.. إ.. إ.. إيه؟

تلعثمت قائلة:

– حاجة إيه.. .. لأ .

– ســـ.. ســـــ.. سي عزت فين؟

– بيدور على شغل، ما أنت عارف .

– أ.. أ.. أنا جيت أطمن.. لما شوفتك رااجعة مش بعادة .

– شكرًا رمضان.. ألف شكر يا خويا.

نزل رمضان الـــذي خلع قلبها، ودخلت في حوار مع نفســـها هل رآنا رمضان أمام العمـــارة، بالطبع هو يعرفها جيدًا، ثم تهدئ من روعها بأنه

ليس هناك من يعرفهما. تخشـــى أن يكون قد تبعهما بدون علمهما إلى هناك. خرجت جمالات من وسواســـها على صوت عزت وهو ينادي، قائلاً:

- واحد شاي وشيشة يا رمضان.

وسمعت صوت رمضان الذي بدأت تخافه:

- أ.. أ.. أمرك يا سي عزت .

عادت لوسواســـها ثانيـــة، ربما الآن يحكي لعزت عمـــا رأى؟، ثم تندم على أن وافقت محمد أفندى الذهاب إلى المكان المشـــؤوم، ثم تلعن الحاجة ســـعدية، هي النار والماء معًا، أنهت ما كان ببيديها من عمل وعقلها لم يفتـــأ يذكر الفضيحة القادمة إن لم يســـكت رمضان، نزلت إلى الحاجة سعدية تستشيرها في أمرها، أخطأت حين ألقت تحية الصباح، فقد كان الوقت قريب العصر، لم تدعها ســـعدية بل هنأتها بشاغل بالها، وأعلمتها بتهكم أن الوقت قريـــب العصر، لهفة جمالات غير المبررة كانت كفيلة لفضح أمرها، قصت عليها ما كان من أمر رمضان وخشـــيت أن يكون قد رآهما معًـــا، طمأنتها بأن هذا هو حق الجـــيرة، وأن من الخوف ما قتل، نظرت إليها الحاجة ســـعدية في خبث أنثوي قائلة:

- سيبيك إنتِ من دا كله، واحكيلي قابلتيه إمتى وإيه اللي حصل؟!

- النهارده الصبح، وشربنا عصير.

- يا بت أنا عارفة دا كله، إيه اللي تم؟!

- عادي خلاص يا حاجة سعدية ولا كلام ولا حاجة .

- ليه فضلتوا ساكتين؟

- أصل العصير ادلق عليّ.

- آه.. وطبعًا....

لم تدعها جمالات تكمل حديثها، قائلة:

- استأذنت وجريت على هنا.

قالت الحاجة سعدية كمن خسر الجولة الأولى في مبارزة:

- طيب.. عملتي خير يا جمالات.

وأكملت بعدما صمتت برهة تحدق في جمالات باسمة:

- وإزاي اتفقتوا على ميعاد تتقابلوا فيه؟

صمتت جمالات كمن يبحث عن مخرج، ثم قالت:

- دا كل حاجة والله كانت صدفة، إمبارح بالليل قال لي وأنا وافقت .

- أفهم من كده إن الترتيبات كلها كانت صدفة.

نظرت إليها جمالات في شيء من الغضب لما أحسته من لهجة الحاجة سعدية التي تقلل فيها من شأنها، ثم قالت:

- هو تحقيق وللا إيه؟

استغلتها جمالات فرصة لإنهاء الموضوع كله لصالحها، قائلة:

- بإذنك، هطلع استريح شوية.

***

تيقـــن عزت من نوم كل من في الشـــقة، ثم أحكم غلـــق الباب قائلاً لجملات «موعدنا الليل».ثم ألقى بنفسه على السرير، صارخًا في جمالات «بحبك».

نظرت إليه مبتسمة، فأردف قائلًا:

- ومقام الخضرة، بوسة الصبح كانت وش السعد، المعلم جمعة وعدني باستلام الشغل بعد بكرة.

ردت بكلمات رنانة:

- يا كريم يا رب.

- آه.. والله يـــا جمالات المعلم جمعة دا راجل ســـكرة، تقي جدًا وعارف ربنا .

ثم صمت برهة، يفسح المجال لجمالات، لكنها لم تتكلم، فأردف:

- إيه رأيك لو يكون عندنا ولد اسمه جمعة؟

قالت في جد:

- لأ طبعًا.. كفاية كدا .

قالت كمن تستعطفه ألا يأتي بعيل آخر:

- إحنا هنصرف عليهم منين يا عزت؟!

قال عزت ضاحكًا:

- ربنا رزاق كريم.

- ونعمة بالله.. بس يا دوب علينا اللي عندنا.

طبع قبلة على جبهتها قائلاً:

- ربنا يخليكِ ليّ يا جمـــالات، أنا ماأعرفش من غيرك كنت هاعمل إيه.

- قوم أطفي النور علشان تقدر تصحى بدري يمكن تروح بكرة الشغل .

قال عزت في خبث:

- لأ.. النور لأ.. الليل بتاعنا.

ثم جذبها بقوة ناحيته، واضعًا فمه على فمها، دفعته في صدره:

- اصبر يا عزت، هتقطع شفتي .

قامت من على السرير قائلة:

- إنت اتجننت؟!

- طبعًـــا اتجننت يا جمـــالات، أنا بعيد عنك فـــترة طويلة.. مخبية جمالـــك دا كله فين!

قالت بصوت مثير:

- ليه مش عارفني؟!

قام هو الآخر بجوارها قائلاً:

- تعالَ نقف في الشباك شوية .

فتح الشباك، وقفا يستطلعان أسرار الشارع في نهم شديدة، ثم تحدثا في كيفية رؤيتها والتقـــدم لخطبتها والزفاف، وما أن انتهى حتى كان قد طبع قبلة على خدها، فقالت في غضب:

- الناس والشارع يا مجنون !

أغلق عزت الشـــباك ثم حملها إلى السرير، وانكب عليها لاهثًا وتقبيلاً قائلاً:

- بحبك يا جمالات.

تثاءبت كمن غلبها النوم قائلة:

- أنا عايزة أنام يا عزت، أنا من الصبح وأنا أغسل وأنضف سيبني أنام؟

قال عزت متظاهرًا بالحزن:

- إحنا اتفقنا على الليل، نسيت وعدك وللا إيه؟!

- هو فيه بيننا وعد يا عزت، دا أنت جوزي.

أمسك عزت بيدها، ثم أطفأ المصباح، وانكب عليها تقبيلاً، فلم يعد يسيطر على أعصابه الثائرة، ضمها إلى صدره في عنف شديد، وفي صمت رهيب، ثم أطبق شفتيه على شفتيها، وأغمض عينيه، وشعر بها كأنها تذوب على صدره، وينصهر قلبه هو الآخر فيها، ثم بدأت لحظة الالتحام، وفي مرة ثانية سمع طقطقة السرير كأنه عصفور من أثر المعركة التي قاربت على الاحتدام، وناما بعدما انتهيا وقد غلبهما التعب.

27

أســـند رمضان ظهره إلى الحائط حامل المنضدة الرخامية التي يلقي عليها الطلبات، يفكر في نفسه، كيف أضاعها بدخوله لطريق المخدرات، طريق وعر، في أقل من أســـبوعين أصبح المعلـــم رمضان، تجار الكيف هم أصحـــاب البلاد الأصليين، من يعيش دون الكيف؟!، تقوم الحروب وتنتهي من أجل الكيف!!، ولكن إذا تأخرت عن سداد فواتير الكيف هذا يعني انهيار اقتصاد بلد بأكمله، يا لحظه التعس!!، إما السداد أو القتل!!، ثم تذكر الحاجة سعدية وتهديدها له، هي الأخرى أغلظت عليه القول، ومؤكدة إن انتهت المهلة فهي ذاهبة إلى النقطة، على كلٍ السجن أرحم من القتل، تنبهـــه رمضان لفكرة القتل، وما بهـــا إذا كانَ هو القتيل إن لم يدفع!!، فماذا لو كان القاتل حتى لا يدفع!!، هى تستحق الموت!!

وهنا قام رمضان مســـتئذنًا من الرجل المحشور بين الكرسي والمكتب، الـــذي كان يقاوم النـــوم بكل ما يملك من قـــواه المنهوكة من كثرة الجلوس على الكرسي، حتى ترهل جسده، وأصبح لا يستطيع ترك المكتب ولا الكرسي، فأصبحوا جميعًا شـــيئًا واحدًا. أومأ الرجل المحشور برأسه دليـــل الموافقة، ثم نظر إلى رمضان في حدة، كأنه يطلب منه ألا يتأخر. خرج رمضان وبرأسه فكرة القتل، ما هي إلا لحظات وتكون الحاجة سعدية قد فارقت الدنيا واســـتراحت وأراحت مـــن فيها. دلف رمضان يمينًا، ذعر الخـــروف الذي قام يجري محاولاً جر الحائـــط خلفه والهروب من وجه القـــادم، اقتطع رمضان الردهة، وفي لحظات كان على الســـلم أمام باب الشـــقة، دفعه بهدوء كي لا يشعر به أحد، ثم سار على أطراف أصابعه،

دفع باب حجرة الحاجة ســـعدية بهدوء فوجد لمبة الجاز بالحجرة مضاءة والحاجة ســـعدية ليســـت بداخلها، رجع بظهره ثم غير اتجاهه فوجدها بوجهه قائلة:

- عايز حاجة يا رمضان؟

قال وقد أصابه الرعب:

- شـــ.. شكرًا يا حاجة سعدية.

هكذا أجاب رمضان الذي تغير لون وجهه وأصيب بدوران، دخل حجرته خائفًا، ثم وضع أذنه على الباب فسمعها تقول: «يسرقني وجاي يصاحبني، والله عجيبـــة»، فرد رمضان عليها في نفســـه تقصدين «يســـرقني وجاي يقتلني»، ثم نظر إلى ســـقف الحجرة يتخيل بذهنه عملية القتل، كيف يقتلها؟ ويعيد النقاط التي سينفذها، ولا يغادر حجرتها حتى يتأكد من أنها قد فارقت الحياة، وأخذ يعيد على نفسه الخطوات ويؤكد عليها ألا يتسرع ، ثم خرج من حجرته وشد نفسًا عميقًا من هواء الصالة المختلط بالأتربة ورائحة الردهة، دفع الباب بهدوء شـــديد، وجدها واقفة، ظهرها للباب ترتب ملابسها بدولابها الصغير، هجم عليها مسرعًا، لف يده حول رقبتها، وضغط عليها بشدة، وهي تحاول الإفلات، زامت وصرخت بضعف، لم يتركها حتى تأكد من موتها، حين جحظت عيناها، وبهدوء شـــديد كأنه قاتل محترف، أزال أثر جريمته، خلع القماشة الملفوفة حول رقبتها، دون أن يلمسها، وخرج مغلقًا باب الحجرة خلفه.

***

دفع رمضان باب حجرته، ثم دخل وهو يرتعد، رمى نفسه على السرير، أمسك بالأغطية وألقاها على جسده، لكن رعشته لم تتوقف، انتظر كمن يبحث عن ســـخونة جسده تحت الغطاء، وأخذ يرسل نظرات خاطفة إلى

أركان الحجرة، ثم يغلق عينيه ويفتحهما كمن يهرب من منظر رهيب سيطر على عقله.. هي الحاجة سعدية، كانت نظراتها منبعثة إليه من أركان الحجرة، يتخيلها وهي تضحك كمن تسخر من مصيره المحتوم، الإعدام شنقًا.

فكـــر رمضان في الهرب، لكـــن.. إلى أين؟، وهو لا يعرف ســـوى حارة العطار، رمى الأغطية من على جســـده كمن يلعن السخونة ويتحداها، «لا.. لن أستسلم سأرحل إن شـــئت إلى أي مكان»، فتش بعقله عن مكان يمكن الهرب إليه، آه.. لم يجد!، إلى أين الهرب؟ وهو لا يعرف سوى الشقة والقهوة والمخزن، آه.. . والمخزن» .

دار برأســـه كثيرًا، فتش.. أخذ يبحـــث، المخزن ذلك المكان الذي لا يشـــك أحد في وجوده هناك، هكذا أراد.

28

صوبت الشـــمس أشعتها من فتحات شـــباك عزت، فقام لاعنًا برأسه ذلك النجار الذي صنع الشباك، وهذا الحال الذي أسكنه في هذا البيت. قام وقد تبين أنه لم ينم طوال الليل، فور الانتهاء من معاركه مع جمالات على الســـرير، والتي باءت جميعها بالفشل الذريع، ساوره شك في سلوك جمالات وطبيعة علاقتها بمحمد أفندي، لا يمكن أن يصل ما بينهما إلى العلاقة الجســـدية، في لحظات، لم يدر عزت كيف مرت عليه كان يرجح أنه نام فيها، رجح فيه أنه سيكون يومًا تعيسًا لما سيجري فيه من كشف لما هو مستور بين جمالات ومحمد أفندي. نظر إلى جمالات النائمة بجواره متفحصًا، ويتســـاءل في حيرة شـــديدة :هل هذا الوجه الطفولي يعرف الخيانـــة؟! وإن كان كذلك فكيف تعلمتهـــا؟!، ومتى؟!، وأين؟!، وهل ملت جمـــالات حياتها معه؟!، أم أصابها اليأس من حياتها الفقيرة؟!، ثم يجيب عن نفسه: لا.. لا قطعًا، ألسنا متفقين على الحلوة والمرة؟! ألسنا متفقين علـــى مواجهة الحياة بما فيها من صعاب وبمن فيها من بشـــر مثل الحيوانات المفترسة التي تأتي على الأخضر واليابس تلتهم العجاف والســـمان؟! ألســـنا قررنا من ذي قبل أن نكون أكثر صلابةً بالاتحاد؟!، صرخ فيها، جمالات... قامت مـــن نومها مفزوعة، فقد ظنت أنها نامت إلى الظهر!، وإلا فمن أيقظ عزت مبكرًا، وهو المعتاد الاستيقاظ بعد إلحاح شديد.

— الساعة كام؟

- الساعة سته ونص.

- إنت إيه اللي مصحيك بدري كده.. مش بعادة؟

- أصل مانمتش طول الليل.

قالت بسخرية وهي تقاوم النوم:

- ليه خايف من إيه؟!!

- لأ... خايف عليكي!

- بيقولوا «العو «اللي في الشقة مشي.

- لأ يا جمالات ما مشيش... دا قاعد ومتبت فيها!

- ليه يا عزت؟

قال بشيء من الصرامة في لهجته:

- لاقي كل اللي يساعده على العيشة هنا!

ثم ذهب ناحية الشباك وهو يقول:

- واللي يكيد...

صمت وهو يفتح الشباك، ثم قال:

- إنه «عو» ندل.

قالت مستغربة من لهجته:

- إزاي يعني؟!

- يعني ممكن يهجم عليكي ويخطفك وأنا مش موجود!

قالها وكان قد انتهى من ارتداء ملابسه ليخرج، وأتبعها قائلاً:

- أنا رايح أجيب الفطار.

***

- الحمد لله.. خلصي يا جمالات واعملي الشاي.

نظرت إليه بعد ما أوقفـــت مضغها، ثم خلعت يدها من الطبق الذي كانت تكور فيه لقمة وتفلطحها اســـتعدادًا لقذفها في فمها، قائلة:

- إيه ما إنت متعود تشرب الشاي على القهوة.

أجاب دون اكتراث بما قالت:

- لأ.. مش هانزل النهارده.

قالت في سخرية كعادتها:

- ليه هتعتكف في البيت؟!

- لأ.. أصلي خايف عليكي من«العو»!

- سلامة عقلك يا عزت.

رفع يده ناحية وجهها يرد لطمها.

- لأ.. سلامة عقلك إنتي.

اضربني يا عزت.. عايز تضربني.. اضربني!

ثم انهمرت الدموع على وجهها المتورد، وفي أشعة الشمس، كنت تلمح الدموع كأنها حبات تناثرت على وجهها الذي زادت درجة تورده فاحمر .

بدا عزت صلبًا!، ليس له قلب!، لقد تحوّل إلى وحش كاســـر!نزل إلى القهوة، أمســـك بكرســـي وخرج به إلى تحت الشجرة الشاهدة على كل أبناء الحارة، جلس يحدث نفســـه؟! ويتساءل هل هناك علاقة بينهما؟!، هل جمالات تخونه مع محمد أفندي؟!

لم يفق عزت من تفكيره إلا على صوت سعيد وهو ينادي على رمضان، ثم اتجه إلى عزت قائلاً:

- تشرب شاي من إيدي يا عزت، وللا ضروري من إيد رمضان؟

أجاب عزت الذي نظر إليه مبتسمًا:

- لا من إيدك، ولا من إيد رمضان !

- تبقى شربت من إيد المدام ومش عايز تشرب حاجة بعده!

قالها سعيد وهو يهرول بالدخول إلى القهوة .

دخل عزت في تفكير وحوار مع نفســـه متســـائلاً: «ما الذي يمنعه من مخاطبة جمالات؟!»، ثم يعود ويؤكد لنفســـه أنه لا يشـــك مثقال ذرة في أخلاق جمالات!!، ثم صعد أخيرًا إلى الشـــقة وهو يؤكد لنفسه على مواجهة جمالات.

- صباح الخير .

- صباح النور يا عزت!

لم يكـــن عزت يتوقع إجابتها، فكان على القهوة قد روّض نفســـه على انتقاء بعض الجمل والمواقف حتى يجعل جمالات تعاوده الحديث، ثم قال:

- شـــوفي يا بنت الحلال.. علشـــان نحط النقط علـــى الحروف.. في موضوع صغير.. عايز أعـــرف ردك فيه؟!

نظرت جمالات التي أومأت برأسها دليل الموافقة .

- إنتي كنت بتعملي إيه مع محمد أفندي عند النيل؟

بإجابات ثابتة، كأنها أعدت لذلك، تذكرت أن محمد أفندي كان قد حدثها في بيت الحكيم في موضوع العروسة، قالت:

- وإحنا في بيت الحكيم عند رمضان، سألت محمد أفندي عن عدم جوازه لعند النهارده، قال: إنه كان بيدور على عروسة وأخيرًا لقيها، طلبت منه إني أشوفها، الراجل اعتبرني ذي أخته ووافق على ميعاد، واتفقنا عند النيل نتقابل، المهم العروسة ما جتش، قمت راجعة.

نظر إليها عزت، كان يثق فيها تمامًا، أو كأنه ينتظر هذه الإجابة قائلاً:

- آسف لسوء الظن يا جمالات.

29

- فز قوم يـــا ابن الكلب خليك محترم، مـــش كفاية لحمتك نتنة، إيه الحاجة ســـعدية فين؟، راحت عليها نومـــة، يكون آخر نومة ليها البعيدة بنت الكلب، وبالمناسبة يا خروف كلها كام يوم على العيد، وأنا بكرر تحذيري إياك تتباع لواحد من الجزارين لأنه ممكن أشتري مـــن لحمتك النتنة، اللي أنا أعرفها كويس، وزي ما قلت لك قبل كده، هارميها للكلاب هي وسعدية والجزار.

هكذا أطلقها ســـلامة عبد الحكيم موجهًا خطابـــه للخروف الراقد، وصعـــد ورائحة الردهة تخترق أنفه لتصـــل إلى قلبه فيرتفع عدد دقاته، فيسرع حتى ينتهي من هذه الرائحة، لكن إلى أين؟، فسوف تظل الرائحة نتنة إلا أنها ســـتقل على السلم، صعد سلامة مناديًا:

- عزت.. لأ.. لأ.. عزت إيه.. جمالات، إنتِ فينك يا جمالات، اللطخ راح يدور على شغل من الصبح ومابيرجعش غير العشاء، وأكمل في نفسه)ومحمد أفندي بيونسك لعند ما يرجع(، ونادى قائلاً:
- جمالات.. يا جمالات.. عايز أشوف عنيكي يا بنت الكلب !

وهنا خرج عزت قائلاً:

- مرحب.. مرحب.. يا عم سلامة.
- عمي لما يصيبك ويصيب أهلك يا لقيط يا ابن الكلب!

نظر عزت بحنق شـــديد للرجل، وداخليًا لعنه بأقذر وأفجع اللعنات، ثم قال:

- والله يا سلامة أفندي إنت بتحسسني بسرعة الأيام، إيه يا راجل لحق الشهر يمر، دا ما فيش لسه إمبارح إنت كنت هنا بتاخد الإيجار.

- إيجار.. إيجار إيه؟، أنا عمري شفت من وراك إيجار.

أكمل عزت قائلاً:

- الله يكون في عوني يا ســـلامة أفندي، أنا نفسي والله ألاقي شغل، بس أنا عايزك تكون مســـجل كل الشـــهور اللي مادفعتهاش، بينا وبين الظلم ربنا.

- هو أنت دفعت حاجة يا ابن الكلب! ، دا إنت من يوم ما سكنت هنا ما شفتش منك مليم أبيض، ولا حتى كلمة حلوة تبل ريقي!

قالها سلامة، وعلى إثرها لحق عزت:

- والله أول ما استلم شغل...

قاطعه سلامة:

- تستلم إيه.. ليه هيعينوك في الوزارة؟!

ابتسم عزت وهو يقول:

- قصدي أول ما اشتغل هتاخد فلوسك يا سلامة أفندي.. هاوصلها لك أنا بنفسي.

وأكمل سلامة:

- هو فيه إيه النهارده، الحاجة ســـعدية مش تحت، وجمالات ما تردش عليّ، وابن الكلب دا على الصبح ما يدورش على شـــغل يصرف على الملاطيش اللي عنده؟!!

دفع سلامة أفندي عزت في صدره وهو في قمة الضيق قائلاً:

- غور من وشي!!

نظر سلامة لباب حجرة الحاجة سعدية دون أن يطرق عليه قائلاً:

وإنتِ فين يا بنت الكلب... دلوقتي نايمة بتحلمي بإيه؟! عايزة تتجوزي وللا إيه؟!، يخرب بيت أهلك!

ورفع يده ليطرق الباب، إلا أنه عدل عن الطرق قائلًا:

- إنتي مقدور عليكي هتقول بعد كام يوم العيد وهابيع الخروف وأسلم لك الإيجار.

وأكمل:

- خلينـــا مع ابن الكلب الغـــبي اللي اسمه رمضـــان وبعد كده أفوت عليكي .

وذهب لباب حجرة رمضان طارقًا:

- قوم يا ابن الكلـــب يا مزجنتي...الإيجار يلعن أبوك يا غبي، لأ ومش أبوك بس دا وأمك كمان، أنا عارف إنت بتعمل إيه في الدنيا دي؟!، روح جتك مصيبة في أجلك أنت وسليم باشا العطار.

وأكمل بعد ما انتظر برهة قائلاً:

- إنت فين يا ابن الكلب، أنا لازم أصحيك أول كل شهر علشان الإيجار، ويا ريتني باشـــوف حاجة مـــن وراكم، دا إيه القـــرف دا، رمضان..

رمضان يا ابـــن الكلب.. الكيف خد عقلك وفلوســـك، أمتى بقى هينصلح حالك؟ وترجع لأبوك وأمك وتبقى بني آدم؟ حرام عليك صحتك!!

وانهال سلامة طرقًا على الباب وهو يصرخ قائلاً:

- هافضل مســـتني كتير يا ابن الكلـــب.. رد عليّ يا رمضان.. ولا ليه هترد ما أنا عـــارف الرد، «كان معاك فلوس لعنـــد إمبارح، وحصل إنك فضلت مستني وقمت صرفتها» روح منك لله إنت وسليم العطار وأهلك يا ابن الكلب يا عربيد.

وقبل أن يطرق الباب سمع صوت...

- والله مستنيك من الباب للشباك ومجهز الإيجار، ثانية أدخل أحضره لحضرتك يا راجل يا منور، أيوه الله.. يا ســـلام.. وشـــك دا على الجنة طوالي، الأمانة دي لهـــا ناس، أيوه الله.. مش أي واحد يبقى أمين على موضوع الإيجار، وأكيد يا سلامة أفندي، سليم باشا تعب لما وجدك علشان تحصل له الإيجار.

وأعطى ظهره لسلامة أفندي قائلاً:

- ثانية واحدة.

سلامة أفندي في نفسه قائلاً:

- من الباب للشـــباك بيستناني الخبيث ابن الكلب. آه منك يا محمد أفنـــدي، أنا عارف إنك نفســـك تخلص مني ومـــن عزت والحاجة سعدية ورمضان وسليم باشـــا، علشان الشقة تفضى لك وجمالات، وتاخد راحتك.. لكن دا بُعدك، أنا حاســـس إن الشـــجرة اللى قدام القهوة هتفضحك في يوم يـــا ابن الكلب يا خبيث!!

خرج محمد أفندي باسمًا قائلاً:

- الإيجار يا راجل يا سكرة.. أيوه الله.. إنت على الجنة طوالي.. أمانة ما بعدها أمانة.

جذب سلامة الإيجار من يد محمد أفندي قائلاً:

- شكرًا.. شكرًا يا محمد أفندي .

لم ينتظر حتى يعطيه سـلامة ظهره، فغلق الباب ولا زال وجه سلامة له، فانطلق في ثورة داخلية قائلاً:

- يا ابن الكلب يا نتن.. تقفل الباب في وشي، سفوخس عليك، مسيرك هتقع في إيدي وساعتها مش هارحمك، وهتبقى فضيحتك بجلاجل !

ثم طوح منشته يمينًا ويسارًا.

- إيه يا سلامة هتتزوج امرأة فضيحتها بجلاجل!!؟، لأ.. لأ.. أنا مش هافضحها إلا قدام عزت، علشان يقتل محمد أفندي وياخد إعدام !

وأكمل في نفسه:

- بس يا سلامة ممكن عزت يحاول يدافع عن نفسه، ويقول قتلت دفاعًا عن شرفي، وساعتها لا إعدام ولا يحزنون.

إلا أنه ابتسم قائلاً:

- ماشـي يا سلامة، وسـاعتها تكون خلصت من محمد أفندي، ونبقي نقدر على عزت مرة ثانية.

وتراقص قائلاً:

- وساعتها تبقى جمالات مراتي... مراتي يا عالم!

30

تشـــبث بآخر ومضة في حياته المظلمة، وبآخـــر جزء من قواه المنهارة، أمام هول الفاجعة، وأين يجد تلك القوى، وهو لا يدري بأي شـــيء يفكر ويبصر، لقد أصيـــب بالذهول، لا.. لا.. لقد أصيب بالجنون، ماذا؟! هل يصرخ.. لا.. ليفضح نفســـه!، بل ليشـــعر بوجوده، ليحاول إعادة الدم من جديد في عروقه، ليعطـــي لأعصابه القوة من جديد.. حتى يتحمل الوقوف إن وقف مع الواقفين، أو الســـير إن تركها وشـــأنها هائمًا على وجهه، لا يدري - بالطبع - بما جرى ســـوى الشجرة القابعة أمام القهوة وحينها ســـيأخذ منها ميثـــاق بالحقيقة، أو إن صح بنشـــر الحقيقة، أو يســـتطيع التحدث إن أخذ مع المظلومين. لا يدري هل هناك من يراه؟!، ومن القاتل؟!، تســـاؤلات عديدة تلقي بنفســـها على رأسه وهو لا يدري أين عقله؟! أدار برأســـه كل ما مر، يا لها من فاجعة، امرأة حنون، مثل الشجرة، مكمن الأسرار والودائع، حقًا هي دون أن يعلم، ولا يعلم بها أحد، كالشـــجرة القابعة لا يدري بشأنها أحد، هي سعدية الشابة الفتية التي جـــاءت دون أن يدري بها أحد، وأصبحت بنت الحارة دون أن يعرفها أحد، كذلك فهي تعرف من جمالات؟ ومن عزت؟ وما حقيقتهما؟ ومن محمد أفندي؟ ومن أين هو؟ ولماذا هو هناك؟، ولكن مَن مِن هؤلاء خشـــي على أسراره؟ من منهم غسل عقلها؟ ولماذا؟

عـــدل عن فكرة الصراخ، فهو لن يصرخ، وهل يرحل؟ أم يظل في مكانه منتظـــرًا الواقع والقدر؟!، ولماذا نظراتها المفترســـة إليه؟ أهي تتهمه أنه القاتـــل؟ لا.. لا.. ليس هـــو.. ولكن هي تعلم جيدًا مـــن القاتل! هى

كالغريق، وأنت القشـــة، يا لحظك أيها المغرور، من لا شيء إلى فجيعة، إلى جريمة، إلى مؤبـــد إن لم يكن إعدامًا! ليس ظلمًا.

هكـــذا كان حال ســـلامة عبد الحكيـــم حين رآها، كانـــت عيناها الجاحظتان تنظران إلى اللاشيء، دفن رأسه بكفيه، وارتعدت أوصاله، من يقتلها؟ من يجرؤ على هذه الفعلة؟!، قال فى نفسه:- أيكون رمضان؟، أنا ما صدقشي إن رمضان يعمل كده!، وليه يعني؟ دا واد بتاع مزاج، وشغال نـــادل في القهوة، اليومية بيصرفها على الأكل والكيف، وبعدين هيقتلها ليه؟، دا ولا تملك مليم أبيض، هي خادمة رمضان بتغسله بعض الأحيان ملابســـه، نوع من العطف، ومعظم الأحيان بتجهز له الغدا.

وأكمل سلامة مستغربًا:- تقصد محمد أفندي.

وأكمل:- لأ.. لأ.. محمد أفندي راجل متعلم وميعملش كده .

صمت برهة كأنه يستشير عقله:- آه والله ما تخاف إلا من المتعلمين، تفكيرهم جاهز يعني يقتل القتيل ويمشي في جنازته .

ثم قال لنفسه بصوت مسموع:- لأ.. لأ.

وأكمل في نفسه:- عزت هو يعرف يدبح فرخة.

أنتظر، وأكمل:- دا كلام إحنا بنقوله، لكن ساعة الجد يدبح أسد!

صمت، وعاد بنظره إلى الباب خلفه، وأكمل في نفســـه:- حرام عليك يا ســـلامة، الواد عزت هيستفيد إيه من قتلها؟، دا هي خيرها عليه وعلى عياله، يعني لا يمكن يعمل حاجة زي كده.

عدل وجهه عن المرأة، ورفع يده طارقًا بها على عقله:- آه.. ممكن .

وزاد في الطرق قائلاً:- ممكن.

تحسس نفســـه وعاد يتحدث إليها في صوت خافت:- محمد أفندي.. علشان خايف لتفضحه عند عزت.

كشِّر عن أنيابه، كأنه مشـــمئز من نفسه قائلاً:- تفضحه على إيه عند عزت. دي كلها مجرد توهمات، وعلى فكرة يا سلامة يا حمار، محمد أفندي أشرف من الشرف ذات نفسه .

صمت، والعرق يتصبب على جبهته، ثم أردف في نفســـه قائلاً:- يعني هيكون من القاتل؟

ضرب برأســـه في الهواء كمن فاز بشـــيء سمين:- هو محمد أفندي، قتلها وهو قدام الشـــقة الراجل المتعلم النضيف، ومن يلبســـها، أكيد.. أكيد.. عـــزت، لأن رمضان نادل في القهوة وآخـــره معروف ومايعرفش عن الحاجة ســـعدية أي حاجة، لكن اللي ممكن يكون عارف من جمالات مراته «عـــزت»، أكيد هو القاتل، وإعدام ولا مؤبـــد، وأكيد باتفاق بينه وبين جمالات، وتعترف جمالات بإنه كان يومها بره البيت، ورجع متأخر ومضطرب، ويلبســـها عزت، ومحمد أفندي وجمالات على أعلى مستوى .

صرخ سلامة عبد الحكيم قائلاً:- يا ابن الكلب.

وأكمل:- قتيل.. الحاجة سعدية اتقتلت، محمد أفندي....

صمـــت كأنه أدرك خطأه، ثم أكمل:- محمـــد أفندي.... الحقني، انقذني يا عـــزت... غيتوني يا حارة العطار.

وفي دقائق كانت الشـــقة والطرقة والســـلم لا يـــرى لهم أرض، أما القهوة فكانت خالية تمامًا، إلا من الرجل المحشـــور بين الكرسي والمكتب، وقد زاد سماع الخبر من تقطيبة وجهه، مما زاده قبحًا على قبح، وجمالات لم تزل تطلق صوتها الرنان في جميـــع الاتجاهات، دقائق أخرى وكانت خيالـــة البوليس قد عجت المكان واقتحمت الحارة.

31

أســـند عزت ظهره إلى حائط بالصالة وجلس القرفصاء شـــبه مغمى عليه؟ يبكي في ذهول غير مصدق ما جرى، الحاجة ســـعدية قتلت! ومن القاتـــل؟!، ومتى؟!، وكيـــف؟! ولمـــاذا؟!.. آه.. كان يعتبرها أمه وأباه، والصدر الواســـع الذي كان يحن إليه دائمًا، يشـــكو، يصرخ، فهي كما هي، أمٌ له، لم تر ابنًا سواه. من ذلك الوحش الذي تمنى معرفته ليقتله؟

أما جمالات فكانت هي الأخرى في شـــبه غيبوبة، أو في شـــبه هلوسة، تصرخ، وتندب، وتلطم، ودموعها تنهمر بغزارة، حزنًا صادقًا على هذه المرأة، فكانت هي الوحيدة التي تقضي معها أوقات فراغها الكثيرة، كذلك هي الوحيدة التي كانت دائمًا ما تشعرها بجمالها، تحنو عليها وعلى أبنائها، كانت دائمًا ما تلقي في قلبها الأمل بأنها أجمل امرأة على وجه الأرض، وشـــعرها الأصفر وعيناها العسليتان، ووجهها الأحمر، كل هذا يتقضب ويحـــزن على هذه المرأة الحانية عليها، كانت أمها، وأختها وجليســـتها، ومكمن أســـرارها، وعقلها المدبر، هكذا فقدت جمالات الحاجة سعدية .

أما محمد أفندي فكان أقل منهما بكثير، إذ هو لم يتعد حزنه أكثر من فقد ساعي بريد يوصل ما يريد لجمالات، وإن شئت كان يتمنى هذا لأنه كان دائمًا ينظر إليها على أن بيديها حياته، فلم يكن من داخله ليحزن بل كان يتراقص طربًا، على صوت جمالات الرنان، يحدق فيها كأنه يراها أول مرة، امرأة لم ير مثلها الوجود، ثم يسرق النظرات لعزت خوفًا من أن يراه .

أمـــا رمضان فكان يرتعد من الخوف، حتـــى وهو قابع في المخزن ومن رابع المســـتحيلات أن يصل إلى مكانه أحد.

صعد رجال النقطة، وقال الحكمدار:

من القاتل؟

ناظرًا إلى ســـكان الشـــقة، بعد ما أمر بإخلاء الشقة من أهل الحارة، نظرة جعلت كل واحد منهم يشـــك في نفســـه أنه القاتل.

ناظرًا إلى الجثة، وقال:

من أقرب الناس إليها منكم؟

خرجت جمالات بعد ما كفكفت دموعها:

- أنا.. زي بنتها كده.
- تعرفي إيه عنها؟

بكت جمالات، وهي تحاول أن تطلم لولا أن هجم عليها عزت قائلاً:

- مش كده يا جمالات، ردي على حضرة الحكمدار.

كان مـــن أثر الهجمة أن قطع عزت زرارًا من على صدرها، كشـــف جزءًا منها، وقالت:

كل خير يا خويا.. كانت ســـت طيبـــة والله، لعمرها أذت حد، ولا قالت لحد كلمة تجرحه، ثم اســـتدارت لعزت تخاطبه، وأعطت ظهرها للحكمدار .

- صحيح يا عزت.

مصمص الحكمدار شفتيه قائلاً:

- يعني مالهاش أي أعداء أو سابق خلاف مع أي من السكان؟

لاحـــظ محمد أفندي تحديق الحكمدار في جمالات، نظر إليها فوجد أن الزرار قد قطع، أشار لعزت، أخبر عزت جمالات، وعلى الفور لمت صدرها، مما أغاظ الحكمدار.

ردت جمالات:

لأ.. يا حضرة الحكمدار. هيكون مين يعني عدوها؟!

دخل سلامة أفندي في حوار مع نفسه قائلاً:

إيـــه يا محمد أفندي، خايـــف يا ابن الكلب يـــا واطي على جمالات، خلاص عزت هيروح في داهية، ما هو ما فيش لســـعدية أعداء، وأكيد.. أكيد لابســـة عزت من غير سبب ولا بســـبب، والعيال أبوهم في السجن، يبقى لازم يتشردوا، والحاجة سعدية ماتت، وأنت تيجي لحد عندي تدينى الإيجار وإن حكمت إيجار رمضان علشان ماشفشي جمالات، وتفتح الشقة على بعضها، وكلها كمان كام شـــهر والواد رمضان يطرده سليم باشا من الشقة، وتبقى فضيتلك، لكن على مين؟

سمع الحكمدار، وهو يقول:

يعني هاتحايل عليك، ما ترد عليّ!

قال سلامة، وهو يحاول أن يلملم الإهانة، فهو لو تزوج لكان الحكمدار من عمر أبنائه:

- إيه.. إيه.. فيه إيه؟!

- اسمك إيه وفين أوضتك؟

- سلامة عبد الحكيم يا فندم، ٦٨سنه وحداشر شهر وثمانية أيام، وباحصل إيجار الشقة دي لصاحبها سليم باشا العطار.

- تعرف إيه عن القتيلة؟

- ولا أي حاجة يا فندم غير اسمها سعدية، ودي أوضتها، وأشار عليها، وكل سنة بتربي خروف وتبيعه على العيد، وتصرف من ثمنه طول السنة وتوعدني بدفع إيجار السنة دي السنة الجاية، والخروف بتكون لحمته نتنة، عارف ليه؟، أصل الحاجة سعدية بتكون مربياه في الردهة تحت، ودي بعيد عنك نتنة، يمكن يكون سيادتك شميتها وإنت طالع.

ونظر إلى محمد أفندي سائلاً:

- اسمك ايه وفين أوضتك وتعرف إيه عن القتيلة؟

- اسمي محمد المنيلاوي، حاصل على الابتدائية، موظف على الدرجة السابعة كاتب في الوزارة، أوضتي دي، وأعرف إن القتيلة زي ما قالت جمالات بالظبط كل خير والله يا فندم، والنهارده الصبح....

- بس بس... خلاص.

ونظر إلى عزت قائلاً:

- عرفت إزاي إن الحاجة سعدية ماتت؟

أجهش عزت بالبكاء، قائلاً:

- النهارده الصبح.....

وأخذ ينهنه، وغلبه البكاء فلم يستطع الكلام، وتدخل محمد أفندي قائلاً:

- أنا أقول لك يا باشا، النهارده الصبح، سلامة أفندي لف علينا وأخد الإيجار ومشـــي ونص ساعة كده، ورجع وسمعناه بيصرخ» الحقوني الحاجة سعدية اتقتلت»، طلعنا جري لقينا سلامة أفندي في الأوضة مع الحاجة سعدية.

نظر الحكمدار باستغراب إليه، ثم تلفت إلى عزت قائلاً:

- صحيح الكلام دا يا عزت؟

- آه يا باشـــا، كنت أنا وجمالات بنفطر، سمعنا صوت سلامة أفندي بيصرخ.

التفت الى جمالات قائلاً:

- صحيح الكلام دا يا جمالات؟

نهنهة قائلة :- أيوه.

ثم نظر إلى معاونيه، قائلاً:

- هاتوه على القسم.

ونظر إلى الباقين من أهل الشقة، قائلاً:

- وأنتم هنبقى نحتاج لأقوالكم.

نزل ســـلامة عبد الحكيم مع مخبريـــن، وكان الخروف راقدًا، وما أن رآهم حتى قام منتصبًا مذعـــورًا، ناطحًا الحائط يريد الهروب .

***

اجتمعوا ثلاثتهم في حجرة عزت، ينظرون إلى بعض باســـتغراب وفي ذهول، غير مصدقين ما يجري، وكل منهم يرسم برأسه كيف كان آخر

لقاء بينه وبين الحاجة سـعدية، وظلوا صامتين، إلى أن صرخت جمالات قائلة:

- يا عالم دي كانت إمبارح العشاء بتكلمني على غسيل النهارده الصبح، وأخذت تلطم وتصرخ.

نظر إليها عزت والدموع قد ملأت عينيه قائلاً:

- حرام عليكي يا جمالات مش كده، الموت علينا حق.

ومـا أن نطق الكلمة حتـى أجهش بالبكاء، وأخذ يـروي كيف أنه بالأمس رآها وهي تنظف الخروف، وصبح عليها ودعت له الله أن يوفقه في بحثه عن عمل، وهذه هي آخر مرة رآها فيها، وأخذ يبكي عزت هو الآخر .

قام إليه محمد أفندي قائلاً:

- إيـه يا عزت... إحنا يا راجل هنعمـل ذي الحريم... خليك صلب شـوية يا راجل، دا أنت بتقول» الموت علينا حق.»

ونظر إلى جمالات، وقد اقترب منها واضعًا يده على كتفها، قائلاً:

- خلاص يا ست جمالات، كل حي ولا بد في يوم يموت، وهو دا أجلها.

ثـم أخذ يحرك يده على ظهرها، وعينه على عزت الذي قام ليغسـل وجهه، جذبها إلى صدره، نظرت إلى مكان عزت لم تجده، قبلها، ابتسـمت وهي تقول:

- هو دا وقته يا سي محمد.

رد محمد أفندي عليها بقبلة حارة.

قالت، وقد بدت تفقد سيطرتها على أعصابها:

- كفاية... يا سي محمد.

رد وعينه على مكان عزت وبسرعة ولهفة عارمة:

- بحبك يا جمالات.

وقام إلى حجرته قائلاً:

- أنا في أوضتي يا عزت يا خويا، لو احتجت أي حاجة.

ولم ينتظر حتى يسمع رد عزت القادم من الحمام شاكرًا له.

32

– جمالات.. يا جمالات.. قومي جهزي الفطار.

استيقظ عزت مبكرًا، وما زالت جمالات نائمة، إثر سهرها بالأمس حزنًا على الحاجة سعدية، والساعة قاربت على العاشرة، وهي لم تكن تسمع خطوات محمد أفندي معلنًا الثامنة كما كانت بالأمس، قالها عزت وكان قد انتهى من تغيير ملابسه، فردت جمالات:

– حاضر.. حاضر. أنا قمت، الله يرحمك يا حاجة سعدية.

أخذت جمالات تنظف الحجرة، وترسم بمخيلتها كيف ستصبح حجرة الحاجة سعدية ملكًا لها ولعزت، وملابسها ، وخروفها، آه!، وسريرها، إذ سمعت طرق أقدام على السلم، لم تشك في أنه سيكون شخصًا غير عزت، لكن لماذا عاد مسرعًا، وسمعت صوتًا غريبًا ينادي:

– عزت... يا ريس عزت.

خرجت جمالات مسرعة، قائلة:

– مين؟

– ممكن أكلم الريس عزت؟

– هو خرج يحضر الفطار، ولحظات ويكون على وصول، تعال اتفضل.

دخل الرجل الغريب، وأجلسته مع أبنائها الصغار، مستأذنة منه لحظات لتحضر رمضان، نزلت على القهوة مسرعة، وسألت سعيد النادل

عـــن رمضان، لكنه أجابهـــا بأنه لم ينزل إلى الآن مـــن الحجرة، صعدت مسرعة، وطرقت باب رمضان طرقًا شديدًا، لكنه لم يجب، تيقنت في نفسها أنه ليس بالحجرة، وتســـاءلت في نفسها:

- إمبارح رمضـــان ماكنش في الشـــقة طول وقت العـــزاء، والنهارده كمان، دا يظهر كده مابتشـــي في الشقة من يومين، يكون هو اللى قتل الحاجة ســـعدية وهربان؟! طب هيقتلها ليه؟! دي حتى بتعطف عليه، أما غريبة، طب ســـلامة هيقتلها ليه؟!، والله دي حاجة تحير؟! طب مين اللى قتلها؟!

وفاقت من تحديقها على نحنحة الضيف قائلاً:

- اللا الريس عزت هيتأخر... أصل أنا عندي شغل في الفرن.

أجابت والســـعادة العارمة تتملكها، كأنها قد نســـيت مقتل الحاجة سعدية، قائلة:

- لأ.. لأ.. يا خويا دا هو على وصول .

ومـــا أن أنهت كلماتهـــا حتى وقفت على باب الشـــقة منتظرة عزت بالبشر والســـعادة والســـرور، وما أن رآها عزت، قال مستغربًا:

- إيه يا جمالات، خير اللهم اجعله خير.

قالت بعد ما ربتت بيديها على كتفه:

- راجل من الفرن عايزك جوه .

قال عزت بعد ما طار من الفرحة :

- والله صحيح يا جمالات؟

- ادخل وشوف يا خويا.

دخل عزت مسرعًا، وأساريره مفروجة عن بسمة يشوبها بعض اليأس، فقد تذكر حظه المعاند معه دائمًا، قائلاً:

- أهلاً.. أهلاً.. أزيك ياريس إسماعين .
- أهلاً بك.. يا ريس عزت.

وأكمل وهو ضاغط بشدة على يد عزت، قائلاً:

- المعلم جمعة بعتني وبقولك تقدر تستلم الشغل من اليوم، وردية ليلية بتبدأ من الساعة ٩ مساءً حتى ٩ صباحًا.

أجاب عزت وكله سعادة:

- حاضر.. حاضر الساعة ٩ بالدقيقة هاكون عندكم.
- وإحنا في انتظارك يا ريس.

قالها الرجل وهو يهم بالخروج قائلاً:

- استأذن أنا علشان عندي شغل في الفرن.

رد عزت:

- شرفت يا ريس إسماعين.

***

جلس عزت بعد أن تناول الإفطار، وجمالات ذهبت لعمل الشاي بعدما أخذته من حجرة الحاجة سعدية، يفكر في كيف سيصبح عاملاً في الفرن، وسيصرف على البيت، ويجلس على القهوة ويحاسب لكل من حاسب له، وخصوصًا رمضان الذي كثيرًا ما تحمله في وقت ضيقته، دخلت جمالات حاملة صينية عليها الشاي، نظر إليها عزت بنهم قائلاً:

- إزيك يا جمالات؟

أجابت جمالات وهي تنحني لتضع الصينية قائلة:

- زي القمر يا سي عزت .

وأخذت تضحك ضحكة أنثوية مثيرة، وأكمل عزت:

- خلاص جمالات، ربنا عوّض صبري خير، والحمد لله هاشتغل وهتبقى القشة معدن.

- يا رب يا عزت يا رب، ونأجر أوضة الحاجة سعدية، والعيال يباتوا هنا، وأنا وأنت نبات فيها لوحدينا .

أجاب عزت بشيء من السرور:

- آه.. آه.. دا أكيد.

وتحوّل وجه جمالات، فقد علته مسحة حزن، قائلة:

- مسمعتش حاجة عن سلامة أفندي .

أجاب عزت وقد تغير وجهه هو الآخر:

- لأ.. والله ســـلامة دا مظلوم، بقى يقتلها، طب ليه؟، هوه بينه وبينها حاجة؟ على العموم بكرة الحقيقة هتبان.

قالت جمالات، بعد ما ترددت كثيرًا في الكلام:

- هوه فين رمضان؟

- تلاقيه في القهوة؟

أجاب عزت ولم يلق بالًا للسؤال، وأكمل:

- فيه حاجة ولا إيه؟

قالت جمالات، وهي أيضًا مترددة في الكلام .

- لأ ما فيش .

وصمتت برهة وأكملت:

- أصلي من امبارح ما شفتوش .

ووجهت نظرها لعزت:

- إنت شفته امبارح ساعة ما رجالة البوليس أخدوا سلامة؟

أجاب عزت وقد بدأ ينظر إليها باستغراب، ويساوره شك في كلامها:

- تقصدي إيه يا جمالات؟

- ولا حاجة يا خويا.. أنا خايفة ليكون صابه مكروه وللا حاجة.

قال عزت وهو يحاول إخفاء كلامه:

- ممكن يكون هوه يا جمالات؟!

اكتفت جمالات برفع كتفيها، وزمت شفتها السفلى، أكمل عزت:

- لأ.. يا جمالات أنا ما أعتقدشـــي.. طب ليـــه؟ هو بينه وبينها إيه؟، لأ.. لأ.. يا جمالات، شيلي الأفكار دي من دماغك، وسيبي البوليس هي توصل للقاتل الحقيقي، ومش تتكلمي مع حد، وتدخلي في سين وجيـــم، إحنا ما صدقنا ربنا فكها علينا يا بنت الحلال .

اكتفت جمالات أيضًا بالإشارة برأسها على الموافقة، وأكمل عزت:

- وأنا دلوقتي هاوصل للمعلم جمعة، أشوف طبيعة الشغل وأقعد معاه ساعة، وراجع.

33

- مساء الخير يا سي محمد .

قالتها جمالات والابتسامة تكسو وجهها الأحمر، وتكاد عيناها تنطق قائلة: «بحبك يا سي محمد، وبموت فيك»، نظر إليها محمد أفندي قائلاً:

- مساء الخير على أجمل عيون اتخلقت في الكون.

سألته جمالات وهي تلتهمه بنظراتها قائلة في خبث:

- والله صحيح يا سي محمد، عيوني جميلة؟

- طبعًا.. طبعًا أجمل عيون فى الكون !

ردت وهي تحاول أن تثير دهشته:

- يعني ما فيش موظفة معاك عجباك .

انتصب محمد أفندي واقفًا والابتسامة على وجهه قائلاً:

- وأنا ألاقي العيون الجميلة دي فين، بس.

- بس إيه؟

- في موظفة عجباني جدًا يا جمالات .

لم تحاول جمالات إبداء دهشتها وقالت:

- ربنا يسهلك.

وأكملت:

- الساعة كام علشان أصحي عزت؟

نظر محمد أفندي متعجبًا وقائلاً:

- تصحي عزت ليه؟ هو عزت مش بيدور على شغل؟

ابتسمت جمالات، قائلة:

- لأ.. خلاص ما هو لقى شغل.

- فين .

- في فرن المعلم جمعة من الساعة ٩ مساءً إلى ٩ صباحًا فترة ليلية .

اقترب منها محمد أفندي هامسًا في أذنيها في خبث:

- يعني مش عايزة تعرف مين الموظفة .

تظاهرت جمالات بعدم الاهتمام قائلة:

- لأ.. شيء مايخصنيش .

قال محمد أفندي:

- الساعة تمانية ونص وهأقولك بعد ما عزت يمشي على الشغل.

***

- عزت.. عزت.. قوم بقى ،الساعة تامنية ونص، قوم يدوبك تنزل على الشغل .

نظر إليها عزت الذي جلس على السرير مبتسمًا، قائلاً:

- خلاص يا جمالات، ربنا عوّض صبرنا خير.

- قالها عزت وهـــو يتناول من يدها ملابس الخروج، ويبدأ في ارتدائها، وأكمل:

- الساعة تسعة هاكون بصحيكي من النوم، نفطر وأنام، مع السلامة يا جمالات .

خرج عزت، شعرت جمالات بضيق شديد، وخصوصًا بعد موت الحاجة سعدية، لقد رحل عنها أعز اثنين في الوجود، الحاجة سعدية وعزت إن لم يكن ميت، فهو في عداد الموتى، ليلهاصبح شـــغل، ونهاره نوم، وهي بين هذا كله كأنها حيوان، لا يشـــعر بالوحدة؟ بل إن الحيوانات لتتألم للوحدة، كيف ستواجه مستقبلها المظلم وحدها، ومستقبل أبنائها؟، ما بين الموت والحياة في هذه الشـــقة الملعونة، فهي لا تدري كيف قتلت سعدية؟، هل في الشقة قاتل؟، ومن خطف رمضان؟، أو من قتل رمضان؟، فهى لا تدري أحي هو أم ميت؟، ومن خطط لعمل عزت ليلاً لقتلها بالوحدة؟ أهو القدر الـــذي لا تعرفه؟ أم هي الصدفة العمياء الـــتي دائمًا ما تتهمها جمالات بالتحكم في فعلها؟ وهل سيأتي اليوم الذي تستنشق فيه الهواء النقي في مكان غير هذا؟، أم ســـيكتب عليها أن تموت بين أحضان هذه الشـــقة مع شياطينها من الإنس والجن؟!

تأملت جمـــالات أبناءها النائمين، وتخيلتهم كبـــارًا، كل منهم في شـــقته مع زوجته وأبنائه، كيف سيكون شـــكله؟، كيف سيذكر أمه؟ وكيف ســـتكون زوجته؟، هل هـــي كما هى زوجة لابنها؟، أم ســـتكون جمـــالات أخرى؟، أنت؟ لا.. لا.. ليس أنت!، بل أنت.. أنت يا من تشـــبه أباك في ظهره المحني، وسمرته المظلمة، ســـتكون أنت أيها الطفل النائم!، ستخونك زوجتك، وساعتها ماذا ســـتفعل؟! هل ستقتلها كما قتلت الحاجة ســـعدية؟ أم ستموت أنت؟ ســـيتوقف قلبك، ويسكن ضخ الدم وســـريانه، وستموت، نعم ستموت، أم هي فلن تنتهي عن الحرام، نعم أنها

تجد فيه نفســـها المقتولة فيها، ستحيا هى وتموت أنت، نعم، وأنت القاتل ليس غيرك!، كما أن أباك هو القاتل لنفســـه، أما أنا فلا تلمني، لأنني لم أجده، كما ســـوف لا تجدك زوجتك أيها القاتل الأبله!!

ألقت جمالات بجسدها على السرير متحسسة مكان عزت الفارغ منه، تخيلت كيف هو في مكانه الفارغ كما هو، فهو فيه أو ليس فيه لا يغير من الأمر كثيرًا، وأخذت تتخيل كيف كان يوم زفافها لعزت، وكيف كرهته في أول يوم، ثم كيف لأن قلبها له وذلك لطيبة قلبه، فهو بما يحمل من أشياء تكرهها، إلا أنها تعشـــقه، نعم تعشقه بكيانها ووجودها، كما هي لا تشـــك في إخلاصه لها، أم هي منذ أن وقعت في مصيدة محمد أفندي، فهي تنظر لكلاب الشوارع على أنهم أشرف منها، فالكلاب ترفض أن تروى من أكثر من مســـقى، أم هي فتحب أن تروى من مساقي غير مشروعة.

تثاءبـــت جمالات وهي تحاول أن تقاوم آخر ومضة في يقظتها، فقامت إلى اللمبة نمرة خمســـة، وما هي إلا لحظات حتى راحت في النوم .

استيقظت جمالات من نومها على وقع طرقات حذرة بأنامل مرتعشة، قامت إلى النور وأضاءته، ثم قالت في همس:

- مين اللى بيخبط.

- أنا يا جمالات، محمد.

فتحت الباب قائلة:

- نعم يا محمد أفندي، دا أنا نمت .

رد محمد أفندي في ابتسامة غير واضحة المعالم:

- فين عزت؟

قالت جمالات وهي تبتسم كمن يعرف مغزى السؤال:

- عزت هيرجع الساعة ٩ صباحًا.

نظر إليها محمد أفندي في خبث ونهم قائلاً:

- أسيبك تكملي نوم.. عايزة حاجة؟

- تسلم يا سي محمد .

وذهب ناحيـــة باب حجرته فأغلقت باب حجرتها، فعاد مســـرعًا وهو يمصمص شـــفتيه طارقًا الباب، ففتحت جمالات مســـرعة، فقال:

- أنا مش جايلي نوم، وعايز أقولك على الموظفة اللي عجباني .

نظرت اليه في خبث قائلة:

- وأنا مش عايزة أعرفها.

قال ، وهو يجذبها إلى حجرته:

- وأنا عايزك تعرفيها .

ركل محمد أفنـــدي الباب بقدمه، وجرت جمالات ناحية الشـــباك، وأخذت تترقب القهوة من خلف الشـــباك، وأهل الحارة، والشـــارع الهادئ المظلـــم، وراحت بخيالها فيه، لم تفق منـــه إلا حينما لف خصرها بيديه، واضعًا قبلة حارة على رقبتها أســـفل أذنهـــا، أبعدته عنها قائلة:

- أعملك شاي .

رد عليها بهمسة خافتة، قائلاً:

- بحبك يا جمالات .

قالت في خبث:

- أكثر ولا أقل من الموظفة.

- لأ.. لأ.. طبعًا أقل من الموظفة .

ثم دفعها ناحية السرير، وهو يكمل:

- دي موظفة يا جمالات.

قالت في ثقة من نفسها:

- إيه يعني هتكون جميلة زيي .

وتمايلت في حركة مثيرة، وأكملت قائلة:

- وهتكون عنيها في جمال عيوني .

رد في خبث قائلاً:

- آه ، وأقدر أقولك كمان أنها أجمل منك، وخصوصًا لما أكون معاها لوحدي.

ردت في شيء من الدهشة المصنعه:

- لوحدكم .

- آه لوحدنا .

ثم ضغط على ذراعها، وانكب عليها مقبلاً في شفتيها، وضاغطًا عليهما كأنه يستمد منهما الحياة، ثم ابتعد عنها، قائلاً:

- بحبك يا جمالات، بحبك.

لم يكن منها إلا أن أغمضت عيناها، كأنها تقول: «وأنا كمان باموت فيك»، وفي لحظات كانا قد تعريا تمامًا وغاصا في بعضهما، حتى إن محمد أفندي لم يلحظ القلة التي ضربها بقدمه فانسكبت تقذف ماءها على الأرض .

34

كان عزت فرحًا جدًا بالعمل الجديد، يعمل في نشاط ملحوظ، يحاول أن يثبت قدميه، ها هو قد حصل على عمل بعد طول عناء، يتراقص أمامه حلم قديم، لا بل تتراقص أمامه الدنيا، سيصبح له دخل ثابت، سيضع جزءًا منه في الإيجار، وجزءًا في طعام ومصاريف الأبناء، وجمالات سيشتري لها كل شهر فستانًا، ستكون الشقة له، سيصعد سريعًا من فئة الطبقة الكادحة المعدومة، إلى الدرجة الرابعة مباشرة، شقة، ودخل ثابت محترم، وزوجة جميلة، وبينما عزت غارق في أحلامه، يفكر في مستقبله الممتع، وراح وكأن الأحلام أذهبت عقله، أفاق على يد تطرق على كتفه، كان المعلم جمعة، قائلاً:

- اللى واخد عقلك يتهنا به يا ريس عزت .

- دا الشغل والله يا معلم .

وأكمل عزت بعدما صمت برهة، ثم لحقها بتنهيدة عالية حزينة في خارجها، أما هي فتحمل في طياتها بشائر السعادة:

- الحمد لله، ربنا عوض صبري خير يا معلم .

رد المعلم، وكان قد أخرج مسبحته من جيب الصديرى، قائلاً:

- ربك يا عزت بيرزق الدودة في بطن الصخرة، اللي في بطن الجبل، ومبينساش حد، ولو مكتوبلك تاكل عيش هنا لازم تاكله.

أعجب عزت كثيرًا بكلام المعلم جمعة، قائلاً:

- ربنا يجعلنا عيش معاكم يا معلم جمعة .

ابتسم المعلم جمعة ابتسامة أظهرت عن أسنانة البيضاء قائلاً:

- أمين يا رب .

أحس عزت بأن الدعوة استجيبت لأنها من رجل صالح كهذا، خيره غطى على كل أهل المنطقة هنا، الغني قبل الفقير.

قال المعلم جمعة:

- تعال يا ريس عزت نصلي الفجر، وربنا يسهل .

- أمرك يا معلم .

هكذا جاء صوت عزت الذي كان يسحب الطاولات ويضعها فوق بعضها تمهيدًا لنقلها، ترك الطاولات وغير ملبسه وذهب مع المعلم جمعة إلى المسجد، صور عزت للمعلم جمعة، كيف أنها المرة الأولى التي يصلي فيها الفجر، وكيف أنه مقصر في أداء بعض الفروض، لكن - بإذن الله - طالما مع المعلم جمعة فلن يترك فرضًا.

انتهيا من صلاة الفجر، ولبس كل منهما نعله، وسارا عائدين إلى الفرن، نظر المعلم إليه قائلاً:

- شوف يا عزت يا ابني، إنت لسه مش قد سهر الليل، كفاية عليك كده النهارده وروح نام.

ثم وضع يده في جيبه وأخرج ورقة بخمسة وعشرين قرشًا، قائلاً:

- خد هات حاجة للعيال.

تراقصت الورقة أمام عزت فكان يضربها النسيم العليل الذي يلاحق مصلى الفجر إلى بيته في جميع الاتجاهات، أخذها مسرعًا ورفعها الى فمه مقبلاً ثم وضعها على جبهته شاكراً لله، أراد أن يضعها في جيبه لكنه عدل، فهي أغلى بكثير من تلك الملابس، لا بل أغلى من الجثة التي عليها الملابس نفسها، أخذها دون أن يعقب بأي كلمه، لقد نسي أن يشكر للمعلم،وكأنه يقول فى نفسه «مين فى جيبه ربع جنيه بحاله» ،ويتراهن في نفسه أنه لن يجد سوى مع المعلم جمعة، نعم هو فقط الذي يستطيع أن يضع في جيبه فئة من هذا النوع. أخذها وهو يجري ناحية بيته، لا يدري كيف سيواجه بها جمالات؟، كيف سيبلغها أنه يمتلك ربع جنيه؟، كيف يستطيع شراء المنزل؟، لا إيجار حجرة أخرى، ثم تذكر أنها نائمة، هل يوقظها؟، أم يدعها تفيق وحدها في الصباح؟، أم يلصقها على جبهتها حتى تستيقظ فتصاب بالذهول؟

دلف عزت يمينًا، وفي ثوانٍ كان قد اقتطع الطرقة عابرًا السلمتين بطريقة بهلوانية، وما هي إلا لحظات حتى أصبح واقفًا على باب الشقة، يراجع نفسه فيما سيفعل مع جمالات، وأخيرًا جاءته فكرة أنه سيسكنها في حضنه.

دخل عزت من باب الشقة، لفت انتباهه نور حجرة محمد أفندي، هل يصلي الفجر؟ على كل ربنا يهديه، هكذا دار في نفس عزت. وجاء في نفسه لقد نامت جمالات، وأغلقت الباب خلفها، لابد أن أطرق لإيقاظها، ثم له ما أراد، ستستيقظ جمالات، وستكمل ليلها تفكر سعيدة في كيفية صرف هذه الورقة؟ لا أعتقد أنها تستطيع صرفها، فهي أعلى مبلغ صرفته كان عشرة قروش، آه.. سيتوقف عقلها عن العمل، كيف ستصرف كل هذه الأموال؟!

طـــرق عزت الباب، ففتح معـــه، دخل لم تكن جمالات على الســـرير، ابتســـم، فقد جـــاء في ذهنه أنها نائمة في حجرة الحاجة ســـعدية، دخل حجرة الحاجة سعدية، لم تكن بها، أين هي؟ جرى ناحية المطبخ والحمام، لم تكن بهمـــا، آه.. أين هي؟، أين أنتِ يا جمـــالات؟، جرى ناحية حجرة محمـــد أفندي، أزاح البـــاب بهدوء من أمامه، جثتان على ســـرير واحد، كما ولدا، إلا سراويل معلقة بأطراف أقدامهما، نظر لرأسهما، نعم فقد كانـــت رأس محمد أفندي ملتصقة برأس الأنثـــى مخفية وجهها، لكنه شعر جمالات الأصفر ، أصدر صرخة مكتومة لم تهز إلا كيانه الداخلي، كادت تقضي عليه هو وحده، أما هما فكانا غارقين إلى رأسهما، وهو على باب الحجرة يشـــاهد في صمت، صفق الباب بقوة، قـــام العراة مهرولين تائهين، ارتديا ملابســـهما في ثوانٍ، خرجت جمالات مسرعة، ومن خلفها محمـــد أفندي ناحية حجرتها، لقد كان نورها مشـــتعلًا، آه.. لقد جاء عزت، لقد كشـــفها في أحضان عشيقها.

دخلت الحجرة قائلة:

– أنت جيت إمتى يا عزت؟

نظر إليها عزت، ماذا سيقول؟، أم كيف جاز لها الكلام؟، كيف نطق لسانها باسمي

جلســـت خلف البـــاب، ودموعها في عينيها، أما هو فـــكان ملقى على الســـرير شـــارد الذهن، يفكر بعقل غامض، لكنه نام.

35

جلســـت جمالات تفكر في حزن شـــديد، ماذا تفعـــل؟!، لقد أضاعت حياتهـــا، فهي إن حييت، كان الموت أفضل!، وإن قتلها عزت، فما مصيره؟ وما مصير أبنائها؟! هي السبب!!، أعدمت زوجها!، وشردت أبناءها، وقتلت نفسها!!، وهنا طرق برأسها فكرة القتل، قائلة فى نفسها «آه.. يقتله». يا لها من شـــقة كئيبة، هل سكنها شيطان القتل؟!، هل تحوّلت إلى مسرح لتنفيذ أحكام الإعدام؟!

هكذا هداها تفكيرها إلى قتل زوجها الممدد بمســـاعدة محمد أفندي، لتتخلص من شـــبح الفضيحة الذي يلاحقها.

أما محمد أفندي، فكان لمـــا دخلت جمالات الحجرة خلف عزت، رجع إلى حجرته، وجلس على الســـرير يفكر، كيف ســـيكون مصيره؟! كيف ســـيقتله عزت دفاعًا عن شرفه، وضع يده على رقبته، وقال فى نفسه :»إلا الموت»، وراح يتخيل نفســـه ورقبته منفصلة عن جســـده، تحسس نفسه، فوجـــد يديه ما زالت معلقتـــين على رقبته، فكر في الهـــرب، وإن احتدم الأمر عرض على جمالات وأخذها معه، لكنه عدل عن هذا التفكير، ماذا سأفعل بهذه المرأة؟، رق قلبه لها، فهو يحبها، أي حب هذا؟!، وماذا ستكون نهايتـــه؟!، هل زواج؟!، وهل يقبل الـــزواج بمثلها؟ لا.. لا.. فلتذهب إلى الجحيم!، سيقتلها عزت، فليقتلها كما أراد، أما أنا، فلن أنتظر، ليبحث عني ، فلن يجدني!!، نعم لن يجدني!، سأختفي!، سيفتش عني في ذاكرته، فسيجدني مســـيطرًا عليها، كما أنا، صاحب المؤخرة المتصببة عرقًا، هو

يملكها زوجة، أما أما فأملكها غرامًا وعشقًا، طواعية، أما هو فقد أخذها كرهًـــا، لا تدري كيف أصبحت زوجته؟!، كيـــف في أيام قلائل كانت تحت حكم هذا المحني، آخر الليل .

لقد ســـيطرت فكـــرة الهروب علـــى كيان محمد أفندي، فشـــرع في تنفيذها، أحضر الشـــنطة من تحت السرير، وأخذ بجمع ملابسه، ارتدى بذلته الزرقاء وحذاءه الأسود، إلى أين سيرحل؟، وكيف، لمح بعينه القلة، التقم فمهـــا يريد الماء، لكنها هي الأخرى أبـــت أن تعطيه ماءها، لعنها في رأســـه، نظر إلى الملاءة المنبثق منها عبـــق جمالات، جذبها ليضعها في الشـــنطة، إلا أنه رفض، لا، ستذكره بأيام العذاب، وضع أمواله في جيبه، وحمل شـــنطته، وأطفأ لمبته، ولكن لم تتحول الحجرة إلى اللون الأسود، بل تحولت إلى الرمادي الداكن، آه.. تنبه، لقد أرســـلت الشـــمس سهمًا من نورها، أخذ شنطته وهرول على السلم، دون أن يشعر به، إلا الخروف.

أما جمالات فقد هداها تفكيرها بعد طول عناء إلى قتل عزت بالاتفاق مـــع محمد أفندي، خرجـــت من الحجرة بهدوء، نظـــرت لحجرة محمد أفندي وجدتها مظلمة، جرت ناحيتها لم تجده بداخلها، ووجدتها فارغة من ملابسه، لقد هرب، أصيبت بالذهول، تركها الجبان تواجه مصيرها المحتـــوم وحدها، أليس هـــو الجاني؟! أليس هو القاتـــل؟! قتلها بفعلته الشنيعة ثم هرب، حقًا هو النذل الجبان، لتلقى حتفها، لتموت وحدها .

أســـندت جمالات ظهرها إلى الباب تفكر وتعيد التفكير مرات ومرات، هل تهرب هي الأخرى، أم تنتظر حتى تواجه مصيرها، أخذت تفكر كيف ستترك أبناءها وتموت، من يرعاهم سوى الله، تدعوه ليغفر لها!!

36

يا عزت.. يا عزت!

أتاه صوت المعلم جمعة فنزل مسرعا» دون أن يهتم لجمالات التي تجلس بجوار الباب وعلى وجهها علامات الحزن، خرج بدون أن ينظر إليها، وجد المعلم جمعة في انتظاره فأخذه ومشيا إلى المقهى، جلسا قليلًا، كان وجه عزت شـــاحًبا، يفكر ماذا سيفعل في هذه الورطة، أيقتل جمالات؟، وأولاده من سيربيهم؟!، لا.. لن يقتلها.. ســـيتركها كما هي خدامة لأولاده، لكنه سيتزوج عليها، ســـيتزوج أي امرأة تأتي في طريقه، سيتعمد إذلالها، سيجعل البنت تتأوه بقوة بينما تتعذب جمالات لبعده عنها، لكنه يحبها، يحب جسمها الطري، لا يقدر على منع نفسه منها.

- مالك يا عزت.

أفاق من شروده على صوت المعلم جمعة.

- لا مفيش يا معلم.

- واضح إنك تعبان يا عزت، خد النهارده راحة، يمكن مش متعود على السهر، أنا كنت ماشي وقلت أشرب الشاي معاك.

رد عزت مسرعًا:

- تشرف في أي وقت يا معلم.. أنا جاي الشغل بالليل.

لم يعقب المعلم جمعة على كلام عزت، دخل في حوار مع نفسه ثانية، حرام والله كل اللى بيحصل دا، وبالليل أقعد إزاي، وشي في وش جمالات، تلك الساقطة .

قام المعلم جمعة ومشـــي بينما مشـــي عزت باتجاه البيت بعدما شربا شايهما .

دخل عزت الحجرة وجدها قابعة في ركن، ألقى بنفســـه على السرير، أخذت تبكي وتئن، قامت من مكانها متجهة ناحية السرير، قائلة:

- اقتلني يا عزت، أنا أستحق الموت.

نظر إليها عزت وعلى وجهه علامات الحزن واليأس والألم، تساءل فى نفســـه كيف لهذه العاهرة كل هذا الجبروت؟، تخونني وأنا من أنفقت عمـــري لأجلها، انتصب على الأرض واقفًا صارخًا فيها:

- هل هذه هى المرة الأولى؟!

ســـألها ولا يدري ما مغزى السؤال، أيضًا هو لا يعرف إن كانت تفرق الإجابة هي الأولى أم العشرون!، هي الخائنة على أية حال، والخيانة لا تتجزأ !

ألقى بنفســـه على السرير وهو في غاية الحزن واليأس، ثم نام، أما هي فجلست تفكر، تركها بعدما لوثها!، صبت في نفسها عليه أقذر اللعنات!، لم يكن حظه منها أقل من حظ سعدية!، طالتها اللعنات كثيرًا، بل دعت الله ألا يغفر لها! كما دعته أن يرحمها لأجل أبنائها، ستبحث عن محمد الذي هدم بيتها، ستنتقم منه.

- كمان عايز تقتلني، لأ، دا أنا أهرب.

قالتها فى نفســـها، ثم نظرت لأبنائها الملتفين حولها، فأذرفت دمعة، قامت إلى الســـرير تقاوم النوم الذي غلبها فنامت، كانت متعبة ولم تنم

منذ الأمس، واســـتيقظت على بكاء أطفالها من الجوع، نادت على عزت قائلة:

يا عزت.. يا عزت.

نظر إليها عزت بوجهه الكئيب، كأنه يجيبها قائلاً:

- عايزة إيه يا ساقطة.

زادت نظراته الحزينة من حزنها، وقالت:-

- هات فلوس العيال عايزة تاكل .

انتظر يفكر، ثم تذكر الورقة من فئة الربع جنيه، هرول إلى البنطلون واضعًا يده في جيبه، وجد الورقة، أخذها ونزل، وما هي إلا دقائق كان قد صعـــد ويحمل في يديه وجبة كاملة من الفول والطعمية والخبز، جلس هو وأبناؤه يأكلون، ثم بعد ما انتهوا جلست جمالات التي كانت في غاية الحزن، فلم تلتهم إلا لقمتين على الأكثر.

خرج الأطفال، وبقيت جمالات وعزت في الحجرة، قالت جمالات:

- هتروح الشغل؟

نظر إليها عزت، ولم يجبها، فقالت بصوت مرتفع:-

- طلقني يا عزت.

نظر إليها ســـاخرًا، وردد في نفسه: طلقني يا عزت، ثم أكمل في نفسه هى القتيلة قبل المطلقة، ثم قام إلى ملابسه وبدلها خارجًا.

37

«الله أكـــبر الله أكبر الله أكبر . . .لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر الله أكبر . . ولله الحمد، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وســـبحان الله بكـــرة وأصيلاً، لا إله إلا الله، وحده، صدق وعـــده، ونصر عبده، وأعز جنـــده، وهزم الأحزاب وحده، لا إلـــه إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين لـــه الدين ولو كره الكافـــرون».. جاءت كلمات الملبـــين إلى أذن عزت، رنانـــة، قوية، تهـــز الكيان، فيذوب، ويبحث عن إرضـــاء ضميره بأي ثمن، حتى ولو كان الثمن حياته، إلى متى ســـيظل في داخله حزينًا؟!، هربت زوجتـــه وتركته وحيدًا، وماتت ســـعدية، وهرب محمد أفندي، ولا يعرف أين رمضان، ما الذي يحدث، إلى متى ســـيظل يحمل بداخله أدران الحياة القاتلة؟!، صرخ مـــن داخله صرخة هزت كيانه المنهار، ولكن بلا جدوى، صـــرخ أخرى، ولكن من يجيبه؟!!، التف حوله أبناؤه الصغار مندهشـــين مـــن صرخة أبيهم، نظر إليهم والحزن قد غيّر وجهه فأصبح قاتم اللون!، وبينما هو على هذه الحالة إذ بطرقات شـــديدة على الباب، ذعر، قام إلى الباب فاتحًا، وجد أمامه ضابط شـــرطة، قائلاً له:

— أنت عزت؟

أجاب مضطربًا:

— أيوه يا فندم أنا عزت.

أشـــار الضابط إليه أن يتبعه ،نزل عزت وراء الضابط مهرولًا، فوجد

دائرة من رجال الشرطة والعربات، والأهالي من حولهم، أشار أحدهم إليه وقال:

- هو ده عزت.

التفتت الأنظار إليه، دخل الدائرة ووجد ذلك الجسد المسجى، كان رمضان، نزل على ركبتيه يبكي.

- ده رمضان.

قال الضابط:

- كان ساكن معاكم.

أومأ عزت برأســـه إيجابًا، أخذ يبكي وينتحب والأيدي تلمس كتفه وتربت عليه:-

- ربنا يصبرك، وشد حيلك.

- الشدة على الله.

هكذا أراد عزت الذي لم ينطق ســـوى بهـــذه الكلمة، قام عزت وراح إلى بيته، نظر إلى الخروف الذي أخذ يجذب السلسلة المربوط بها في الحائط، إلا أنها أبت أن تطيعه!، فعاد ينطح الحائط. أما عزت فقد هداه تفكيره إلى الصراخ، عله يبعد التساؤلات، عله يحافظ على هيبته ونفسه أمام الناس.

- أنـــا قتلت جمـــالات.. أنا قتلت جمالات.. انتقمت لشـــرفي يا حارة العطار.. جمالات ماتت..، ونزل على الأرض جاثيًا بركبتيه، كأنه خروف ذُبح.

«تمت»

الكنزي
ALKANZY